أسبوعان في مصر

الطبعة الأولى
١٤٣١هـ - ٢٠١٠م

أسبوعان في مصر معه ومعها

عائشة الصمد


بسم الله الرحمن الرحيم

بسم الله الرحمن الرحيم

هذا العام مهم جداً في حياتي لأن الأحداث التي حصلت معي فيه كبيرة. قد تكون عادية لغيري ولكنها بالنسبة لي عظيمة. فبعد أن أكملت ....عاماً من عمري. لا أريد أن أذكر كم هو عمري بالضبط ولكن المقال يحتاج، فعمري ثلاثون عاماً وسبعة عشرة، فقد أخشى أن أذكرها مجتمعة، ولا أصدق أحياناً أنا نفسي أن عمري أصبح هكذا فكيف يصدقه الآخرون.

بعد هذا العمر أسافر إلى القاهرة، ولوحدي، بالطائرة. هذه ثلاثة أحداث كبيرة. لأني لم أعتد إلا أن أكون بقرب أحدهم. والآن أصعد إلى السماء..........الغيوم. هذا الحدث الكبير دون أن يكون أحدهم جالساً على المقعد المحاذي لمقعدي لأمسك بيده عند شعوري بالخوف أو الرهبة من المجهول الذي سيحدث لي. رباه. إن دقات قلبي تزداد ارتباكاً عند التفكير فقط في أنني هل سأخاف أم لا. سأخفي قلقي عن الشخص الذي يجلس بمحاذاتي ولن أشعره بشيء. ولكن لو أن هذا الشخص أحد أقاربي لعبرت عن نفسي: أنا خائفة، ولانتهى الأمر لأني عندما أفعل هذا أخرج ما في نفسي ليكون التوازن، ولكن عندما أغلق على شعوري الباب فإنه سيزداد ويندفع.........ولكن ماذا أفعل.........لا أدري لأني أتعب كثيراً عندا أخالف طبيعتي التي خلقني الله عليها ثم أعود للتصرف ببساطة كما يحلو لي.........فليدث ما يحدث.

الحمد لله أن أحداث ركوبي الطائرة مرت بسرعة، ولكن ما ضايقني أن الكل، كل المسافرين يعلمون ما سيفعلون وما سيشعرون إلا أنا التي كانت تراقب بصمت ما يجول حولها وتنظر من شباك الطائرة وكأنها في حلم أصعب شيء فيه أنها

لا تستطيع أن تخبر الشخص الجالس بجانبها عن مشاعرها لأنها لم تعتد في أحداث كبيرة مثل تلك إلا مشاركة الآخرين ما يجول بخاطرها.

.........القاهرة..........أكبر عاصمة عربية......... مدينة دولية............. ما أكثر ما سمعت عنها وقرأت أولى رواياتي أثناء طفولتي وصباي. هذه الأماكن التي حصلت فيها أحداث قصصي بالإضافة إلى العدد الهائل من المسلسلات. لقد أحسست أخيراً أنني شخص يعيش ضمن هذا المسلسل الكبير الذي أعيش فيه ويتكلم كل من حولي اللهجة المصرية. نجحت بالتكلم بهذه اللهجة السهلة ولكن ليس دائماً... فمع المزح ينجح الأمر ولكن عندما تكون جاداً وتحاول شراء شيء فلا ينجح.

القاهرة..........هذه الكلمة صارت تعني لي الاتساع. فكل ما فيها واسع..........الأشجار ....الجسور.......... الأنهار .... الشوارع.........العالم..........ولكن بالرغم من اتساعها إلا أنها تغص بكل شيء.....مملوءة بالبشر والسيارات والأشجار والمحلات... أحسسن أني أعيش أيام المماليك ثم أيام الحرب العالمية ثم الهجوم الإنجليزي الفرنسي عليها. ورأيت فيها كل الأشخاص الذين عاشوا فيها دفعة واحدة. بآثارهم، بأنفاسهم، وبما تركوا من خلفهم من مبان مختلفة. أحببت فيها كل شيء من أول نظرة. لون المباني القديمة.... جمال شكلها وغرابته.... الجسور... الأضواء التي تنعكس على نهر النيل بألوانها المختلفة حيث تنعكس الألوان بقدر قوتها وألوانها على سطح المياه. الفرح المتلألئ، كل شيء يغني بصوت عال......هل أنا في الحلم. أم افي الحقيقة؟ ومتى كانت الحقيقة كبيرة إلى هذه الدرجة؟ رأيت صفحة المياه التي كانت تكافح

وبكل شدة حتى تذهب الأثر الذي تتركه حبات المطر على سطحها. تتحرك كأنها سجادة كبيةر ينفضها صاحبها تترقرق مع الدفعات التي تأخذها من أولها إلى آخرها بينما كنت أجلس بذلك المطعم المتحرك داخل سفينة كبيرة. ربطت بإحكام، وبينما كنت أركب ذلك القارب الذي يجري بسرعة على أنغام الموسيقى الذي تنبعث منه. الأنغام العالية والأضواء القوية الملونة. ولكن كل من كان بذلك القارب لم يكن يتضايق من الأصوات العالية، فقد اعتادوا عليها. ولو عشت هذا اليوم فقط في مصر لكفاني ولقلت إنني رأيت كل شيء واستمعت بكل ما هو غريب وجديد وكبير. ولكن مضيفي الطيب وعدني بأكثر من ذلك. ولكني أخاف إن بقيت عندهما أكثر أن أحبهما فوق ما أحبهما الآن وأتعلق بهما وينفطر قلبي لفراقهما: ابنتي وزوجها فالإثنان في نفس المنزلة ونفس المكانة وأحبهما معاً وكثيراً وأخشى عندما أتركهما أن أجد في نفسي الألم الذي وجدته عندما أتيت لزيارتهما في ترك بقية (أجزاء حسمي) أفراد عائلتي.

حي الهرم

السبت١٢/٢٥

القاهرة

(٢)

بدأت تختلط الحقيقة بالحلم لهذا اليوم الثاني لوجودي في هذه المدينة الكبيرة كاختلاط الحليب بالشاي في كوب شخص يجلس على الطريق يفكر ويراقب الليل والنهار بينما كنا نستقل تلك السيارة. ركبنا سيارات كثيرة. ووجه الشبه بينها أنها قديمة جداً وتسير بسرعة على غير هدى بينما يتسابق المشاة مع تلك السيارات في كيفية قطع الشوارع الكبيرة المزدحم، يبدو لي ذلك المنظر من الحركة في الشوارع أحياناً مثل شريط من فيلم ولكنه يعرض على سرعة عالية.

قلت لمحدثي بينما كنا نقطع الشارع ركضاً نحن الثلاثة: تصور يا بلال أن لا أحد يعرفني في هذه المدينة الكبيرة إلا شخصان فقط. شعور غريب.

- ليس شخصين فقط. فنحن وكل أصدقائنا هنا نعرفك.
- ولكني لا أعرفهم. وبالكاد أميزهم. فقط وجهاكما من أعرف.
- طيب وهل سمعت بمترو الأنفاق؟
- نعم كثيراً.
- الآن سترينه.

بدأنا الإجراءات بوصولنا إلى قاعة كبيرة مثل قاعات المطار واشترينا التذاكر زهيدة الثمن ومررنا من ممرات لا تكاد تضع التذكرة حتى يفتح لك باب وتأخذها من الجهة الأخرى وقد دمغت بإشارة ثم عبر الدرج إلى مكان تحت الأرض. لقد رأيت هذا المكان من قبل. ولكن أين؟ نعم في الأفلاك الأمريكية. عندما

تنظر إلى المكان الذي سيمر منه القطار بعد قليل، إنه منخفض أقل من الرصيف بحوالي المترين، ولكن عندما أقبل القطار كان بمستوى الأرض، دخلنا بسرعة لأن أبوابه تغلق بسرعة بعد ثوان وجلسنا على المقاعد القليلة نراقب من خلال الجدران الزجاجية التي تسمح لنا بالنظر وقراءة المحطات التي يتوقف منها بسرعة ثم يعاود السير، أحياناً فوق الأرض وأحياناً داخلها وأحياناً ثالثة تحت نهر النيل. يخامرك الخوف أحياناً بينما تجلس في شيء يسير بك نحو المجهول لا ترى أوله أو آخره.

مسجد الأزهر. هذا الشامخ عبر العصور في مكانه ينتظر. تتعاقب الأجيال التي تعيش حوله إلا أنه ما زال ينتظر. ومسجد الحسين بقربه يشجع أحدهما الآخر على العيش بتلك المنطقة ولا أخفيكم أنني تفاجئت وكنت أظن أن المنطقة التي يقطن بها أفضل وأرتب وأنظف. التحف الفرعونية تباع بكل مكان وكأن لا ما ض لمصر سوى الفراعنة. يحاولون إلصاقها بهم في كل شيء، أما تاريخها الذي نتمي للمسليمن فإنه مهمل. من بين كل تلك الأشياء المصفوفة بالدكاكين من الآلهة الفرعونية والتماثيل والتحف بعضها على شكل حيوانات أو حتى حشرات تمثل الآلهة القديمة والأهرامات الصغيرة متعددة الأشكال والأحجام والألوان أو حتى العقود والسناسل لم أجد شيئاً يمثل التاريخ الإسلامي إلا ورق البردي الذي كتبت عليه آيات كريمة أو لوحات قرآنية أو صناديق مزخرفة. السياح ينتشرون بكل ما مكان وخصوصاً عند قهوة الفيشاوي. لا تكاد قدمك تأخذ مكانها بين هذه الجموع الغفيرة التي أخذت كل الكراسي المصفوفة في كل مكان تشرب الأرجيلة وتراقب المكان بابتسامات المفاجأة.

كم هي جميلة تلك الأنفاق الدائرية الصغيرة تحت الجسر التي تتسع فقط للأشخاص بالمرور من خلالها. جلس في إحداها رجل يقرأ القرآن بصوت عال يملأ المكان حتى يمر الناس ويشعوا له مبلغاً من النقود. لم نكن لنخطو إلا ويدعوك أحدهم للإنضمام إلى تلك القهوة أو غيرها ولكننا جلسنا في مكان لتناول الأيس كريم وأم علي المزينتين بالمكسرات المحمصة.

لم أشعر بتلك الغربة التي كانت تسيطر على عندما كنت أسافر إلى سورية. مع أن سورية أقرب لبلدي فقط كنت أحزن على الأردن عندما كنت أسافر وأتركها لئلا تفتقدني وأعود لأؤكد لها أنني سأعود لها قريباً.

عدنا لذلك الجسر الملتف الطويل الذي يبلغ طوله ١٦ كيلو متراً ومررنا من المكان الذي سهرنا فيه أمس على نهر النيل وكأني كنت هناك من حقبة طويلة. شربنا العصير ثم عدنا إلى البيت نحمل ما اشترينا من تلك الأماكن والأسواق البسيطة، بعض تلك الأسواق التي كانت تتسابك معاً بينما نمشي من سوق إلى آخر مثل المتاهة كانت تذكرني بأسواق مثيلة لها في دمشق لعلها بنيت في نفس الحقبة الزمنية التي أعادتنا إلى عصور كان للمسلمين فيها أمجاد وعراقة وتاريخ نقشت على كل حجر في تلك المنطقة.

القاهرة: الساعة الحادية عشر مساءً

الأحد ١٢/٢٦

(٣)

نسيت كاميرتي هذا اليوم. فآثرت الاحتفاظ بالصور في مخيلتي. وكم ستتسع تلك المخيلة من صور وأحداث. وهل سيأتي يوم لترسل فيه إشارة كما يفعل الكمبيوتر بأنها امتلأت ولا مجال لاستيعاب المزيد، أو أن عليك أن تلغي بعضها..........تلغي بعضها بضغطة زر.......... لو أن هذا يحدث!!

اضطررنا للجلوس فترة صغيرة على المقاعد التي تصطف على الرصيف نراقب حركة الناس والحافلات............لشد ما أثار استغرابي صغر تلك الحافلات في مدينة كبيرة كهذه ولكن عددها الكبير يغطي صغر حجمها.

ثم جلسنا في حديقة جميلة لفندق زوسر الضخم فقد بني على ثلاث أضلع لمثلث متساوي الساقين وتركت المسافة داخل هذه المثلث لاستراحة تحتوي على برك ونوافير وشلالات ومقاعد للاستمتاع بتلك الجلسة الهادئة بينما يحدك من الجهات الثلاث بنايات عظيمة رصت غرفها المتشابهة المتساوية بإحكام. جلسنا بانتظار القهوة نتحدث عن شتى المواضيع. كان المكان والزمان يحرضان على الكلام. وتكلمنا كثيراً عن العلاقات الدولية بين الأقارب وغير الأقارب وارتبطت كل نافذة من أمامي بمخيلتي بفكرة وكل ضوء مضاء بأمل يشع بحياتي، والرسوم الفرعونية على الواجهة بأحداث غريبة، وأحسست أن حياتي القادمة تتدحرج مثل كرة لا أستطيع التنبه لما يرسم عليها لأن حركتها مستمرة وأحببت أن أعرف ماذا سيحدث لي ولكن

ذلك يبقى بعلم الغيب ويبقى الأمل يرسل أشعته الفضية لتنير ذلك الجزء الصغير من الكمبيوتر ألا وهو الذاكرة والمخيلة.

أصرت ابنتي وزوجها على زيارة محل الحلويات القريب من بينهما لتذوق الجاتو والعصير في محلات الجوادي، ولكني لم أستطع تناول العصير لأنهما لا يتركان المجال لمعدتي بالراحة فحملهما بلال معه إلى البيت. ولم أنس أن أتابع الأخبار حين وصولي للبيت حتى اطمئن على الناس الذين يعيشون في جنوب شرق أسيا والذين تعرضوا لزلزال عنيف أعقبه زيادة في المد مما أدى إلى دمار مدن بأكملها.

أكثر ما يضايقني بوجودي في تلك البقعة من الأرض أن مضيفي لا يسمح لي بدفع أي مبلغ ثمناً لأي شيء نشتريه بل إنه لا يسمح لي بالتفكير في ذلك حتى، والشيء الوحيد الذي أستطيع فعله حيال هذا الأمر هو أن أدعو الله عز وجل أن يبارك له في ماله ووقته وجهده وزوجه وأن يعوض عليه خيراً في الدنيا والآخرة.

في هذا اليوم الأثنين آثرنا البقاء في البيت نتابع برامج التلفزيون ونشرب الشاي، غفا مضيفي بينما كنا نتابع أحد البرامج، فنحن لثلاث ليال خلت بقينا خارج البيت للساعة الثانية عشرة أو الواحدة، ويغادر إلى عمله في صباح اليوم التالي الساعة السابعة. بكيت عندا سمعت صوت ولدي الحبيب على الطرف الآخر للمكالمة. لا أعرف لماذا فأمس سمعت صوت أخي ثم زوجته وفي اليوم الأول سمعت أصوات الجميع... ! لم أسمح لأحد برؤية تلك العبرات. غادرت إلى غرفتي مبكرة.........بحجة أنني سأنام......... وبقيت ساعتين أنتظر النعاس لأن يغزو جفوني الحزينة.

الثلاثاء ١٢/٢٨

(٤)

هل حدث وأن لامست وجنتيك نسائم البحر اللطيفة ودغدغتها. وهل سبق وأن اقتربت من هذا الكائن واستمعت إلى إشارته وفهمتهما. وهل سبق أن سمعت حديث السماء له وهما يتناجيان بهدوء في جو ملائكي جميل. وهل سمعت ما قاله البحر للسماء عن إفساد أجوائه الطبيعية من تمزيق هدوئه وتلويث مياهه وجلب المذكر... يا له من منظر. صحيح أن الإنسان أضفى جمالاً على المنطقة بتزيينها بالأنوار الملونة المتلألئة، وسير به البواخر العظيمة بشتى الألوان، ولكن هذا الرقص والاختلاط والتلوث! وماذا عسى هذا البحر أن يفعل حيال هذا؟ إنه يتمرد بعض الاحيان بأمواجه الغاضبة ويلتقط الأشياء والناس أحياناً لقعره العميق ولكنه يعود لهدوئه وانسيابه ويسامح. ولكنك لا تستطيع أن تعرف ماذا يضمر في داخله، فنحن لنا السطح فقط.

كانت رحلتنا اليوم على ثلاث مراحل مع البحر: في الأولى مراقبته من بعيد بالجلوس وتناول البوظة مرة أخرى من نافذة المول الضخم ثم الاقتراب من البحر عبر الشارع ثم الجلوس إليه وملامسته والسرور بضيافته والاستمتاع بكرمه والتمتع بنسماته العليلة التي تشفي القلوب وتعيد الروح للحياة.

تذكرت ابنتي فاطمة وأنا أنظر إلى نهر النيل من خلال النافذة الزجاجية المطلة وتخيلت ماذا يمكن أن تطلق عليه اسما للدلع، وعجزت عن ذلك ولكنها ولو كانت هذا لاستطاعت ذلك لقدرتها الفائقة على اشتقاق الأسماء من خلال الكلمات.

القاهرة الأربعاء ١٢/٢٩

(٥)

كم هو جميل الاختباء فترة من روتين الحياة والابتعاد عن الأحداث اليومية الطبيعية لفترة من الوقت.

لم أكن امتلك ساعة وكنت أعتمد كل الاعتماد على قراءة الوقت من تلفوني الخاص المحمول. ولكن بعد أن تركته في البيت بت بلا ساعة، وأنا التي كنت في سياق دائم معها.........فقد حان الوقت للابتعاد عن جو المعركة والاستسلام لهذه التي لا تفتأ تتحرك ولن تتوقف أبداً.

أقضي وقتي صباحاً في مشاهدة التلفاز وخصوصاً قناة الجزيرة. والحدث المهم الذي ننتظره أنا وابنتي طوال النهار هي عودة زوجها للبيت في الرابعة والنصف أو الخامسة مساء، عندها نتناول ثلاثتنا طعام الغداء ثم نخطط كيف سنقضي أمسيتنا وإلى أين سنذهب وعند الرجوع مساءً أتفاجأ عندما أسأل عن الوقت وأحزان على زوج ابنتي لأنه سينطلق غداً صباحاً إلى عمله بعد أن ضاع الوقت الذي يجب أن يقضيه في الراحة لكنه لا يعبأ لذلك والآن ستأتي صديقات ابنتي لزيارتها والتعرف عليّ.. وعلي تجهيز نفسي وتجهيز الضيافة.

الخميس ١٢/٣٠

(٧)

وعدتكم أن أحدثكم عن بلال. فمحظوظ كل من كان له نصيب بالتعرف عليه، يهل البشر من وجهة عندما تراه. صحيح أنه ذو جسم قوي وعضلات مفتولة إلا أن له قلباً رقيقاً كقلوب الأطفال تأسرك رقته وكرمه وما يحمله قلبه من عاطفة ومحبة لكل من حوله. وأهم ما يميزه مشاعره الرقيقة التي تساعده على الإحساس مع الآخرين ومراعاتهم. اصطحبنا اليوم لمحلات مكتظة، أولاً محلات نوفوتيه ثم الى "كايرو مول". لا أعرف من أين جاءو بهذه الأعداد من الناس لتؤم هذا المول الضخم تجولنا في بعض أركانه، واشترينا بعض التحف والاكسسوارت والهدايا التذكارية. ومررنا بطريق العودة بفندق زوسر الذي جلسنا به في المرة الماضية دون كاميرا، ولكننا اصطحبناها هذه المرة، وعندما دخلنا وجدنا الكل مشغولاً بالتحضير للاحتتفال. عدنا للبيت بعد ان مشينا مسافات طويلة نتحدث في شوارع القاهرة. فغداً أمامنا أعمال كثيرة، سنصنع المعجنات انا وابنتي وسندهب مساءً للاسكندرية للاقامة هناك يومين. اشترينا فيلما آخر ونمنا ونحن نفكر فيما سيكون عليه يوم الغد وما سيحمل لنا من احداث.

(٨)

بدأنا نهارنا اليوم بانقطاع في التيار الكهربائي.اليوم آخر جمعة في عام ٢٠٠٤. أفطرنا مناقيش مع الشاي ثم غادر بلال الى عمله، صحيح انه أخذ اجازة ليومي السبت والاحد الا ان لديه اليوم اعمالاً تتضمن جرد بعض موجودات المصنع، بينما تابعنا عمل المعجنات مع ايمان: بيتزا، صفيحة، خبز بالزعتر، فطاير بالزعتر، كروسان بالجبنة، وما أن انتهينا حتى عاد بلال من عمله بعد الساعة الثانية،حضرنا الحقائب وأخذنا كل ما يمكن ان نحتاجه هناك ثم توجهنا الى المجمع. اشتري لي مجلة أحبها حتى لا امل من الجلوس بانتظار الحافلة، والحمد لله أن انتظارنا لم يطل. حتى جاءت تخطر كالعروس- سوبر جت- حافلة مكيفو بمضيفة. دارت قليلاً بوسط المدينة ثم توجهت شمالا الى الاسكندرية التي تبعد٢٥٠كم عن القاهرة.جلست قبالة النافذة حتى أراقب الطريق، تمنيت أن يكون سفرنا نهاراً ولكن الليل هيبته أيضاً وجمال السفر به. مررنا بمناطق عدة مختلفة وتابعت بنظري كل الاشارات التي تفيد بالاقتراب من المدين. مدينةكبيرة عضيمة. لم تتوقف الحافلة الا بعد أن دخلناها بحوالي ٢٠كم وهناك كانت جموع كبيرة.

لم نجد أحد بأنتظارهم والترحيب بهم. المدينة فقط كانت باستقبالنا، رحبت بنا باستغراب. كانت تريد أن نعرف سبب زيارتنا لها. وكنت اريد ان تعرف ماذا تخبئ لنا. راقبت المحلات والشوارع بلهفة حب المعرفة. الوان التكسيات فقط تغيرات، اكتست باللون الأصفر مع الأسود. نشبه القاهرة ولكن لها خصوصيتها شأنها شأن المدن البحرية. ركبنا السيارة التي

ستقلنا إلى الشقة التي استأجرناها. الشوارع طويلة والسيارات مسرعة، الليلة ليلة رأس السنة وغداً هو اليوم الأول من العام القادم. عيناي مثبتتان على زجاج السيارة لئلا تفوتني لمحة أو لافتة. العمارات العالية بهرتني. بعضها بنظام حديث وبعضها الآخر بنظام قديم. ولكن ما ميزها بنظري أنني أرى الأشياء جديدة تختلف عما اعتدت أن أراه. وأخيراً وصلنا إلى الشقة وكان صاحبها بانتظارنا. أخذنا إليها. تقع في الطابق الخامس ضمن عمارة قديمة. وأول ما دخلناها اتجهت فوراً إلى البرندة الواسعة المطلة على البحر دون أن أكتشف معالمها المهمة وغرفها.

لم أستطع إلا أن أصرخ لهول المنظر. كانت أمواج البحر المتلاطمة تتعاقب نحو الشاطئ وبين العمارة والبحر شارع ذو اتجاهين تمر فيه السيارات مسرعة وعلى الطرف الأخر القريب من البحر جلسات بمظلات كرميدية جميلة، للبحر هيبته نهاراً ولكن في الليل أكثر، فمنظر السماء المتصلة مع البحر بسواد قاتم تدخل الهيبة في النفوس. عدت مرة أخرى للحلم الذي سيطر عليّ فمستحيل أنني هناك في الحقيقة.

شقة مرتبة ومنظمة وكبيرة فيها ثلاث غرف للنوم وصالونان تزينها مزهريات الورد في كل مكان. كل ما همني منها تلك الشرفة.

بدلنا ملابسنا أنا وصهري ونزلنا نتمشى على البحر لأن إيمان كانت متعبة وفضلت البقاء ولكن صاحب الشقة نبهنا إلى أنه في الساعة الثانية عشر ليلاً ستحدث أحداث من الضروري والتنبه لها، فهناك تقليد يوناني قديم إذ كان الناس يكسرون كل ما لديهم من صحون وأكواب زجاجية في نهاية العام ليعيدوا

شراء غيرها جديدة للعام الجديد. وهنا الناس يكسرون أي شيء زجاجي بدل الأطباق. زجاجات فارغة أو أي شيء يكون مصنوعاً من الزجاج.

قطعنا الشارع وبدأنا المشي كانت السماء صافية والبحر متوسط الأمواج والنسيم عليلاً أيضاً متوسط البرودة يعني أنه جو مثالي للمشي. أول مرة أعرف ما هو الكورنيش وكنت أظنه سابقاً: المشي على الشاطئ. ثم جلسنا إليه نراقب امتدادات الأمواج نحونا وسألته:

- هل تحب الإسكندرية؟
- طبعاً.
- الحمد لله.
- وهل تحب البحر؟
- أعشقه.
- الحمد لله لأني لا أحب أن يرافقني أحد ولا يشعر بمثل ما أشعر.
- هل نسيت أنني ولدت وتربيت في الكويت؟
- فما هي أكثر الصفات التي تشعر أنها تنطبق على البحر برأيك؟
- صفاته كثيرة فأحياناً يكون هائجاً مخيفاً وأخرى يكون هادئاً وأحياناً كبيراً.
- ما رأيك أن أكثر صفة تنطبق عليه في رأيي أنه غامض، فأحياناً لا يظهر على وجهه ما يعتلج في

داخلـه فهـو يسـتطيع إخفـاء أشـياء كثيـرة مـع الاحتفـاظ بالهدوء على وجهه مثل رجل يظهر ما لا يضمر.

كنت أتكلم كثيراً ولكننـا عنـدما جلسنا علـى ذينـك المقعدين أحسست أنني أستطيع الكلام فيما بعد أما الآن فالإصغاء يجب أن يكون سيد الموقف. سكتّ وبدأ كل منا يغوص في عالمه إلا الأجزاء التي استطاع البحر أن يمنعنا من ذلك بالضجة التي يحدثها ليثير نظرك وسمعك وحتى رئتيك. هذه الرائحة التي تضايقت منها في أول مرة زرت البحر في حياتي بت أتمنى أن أبقى قربها لأنها توحي لي بأشياء كثيرة.

قلت لمحدثي مرة أخرى: أنا لو جلست هنا أياماً فلن أملّ الجلوس. بالنسبة لي: استكفيت.

- فلنبق لبعض الوقت.

ثم أخذنا التاكسي لنتمشى على جسر ستانلي هذا الجسر سأحدثكم عنه لاحقاً أما الآن فوداعاً.

السبت

الساعة ٦ صباحاً

جسر ستانلي

ينحني هذا الجزء من الشارع بسبب البحر فجاء هذا الجسر مكملاً للشارع. بني من أجل الزينة للسير عليه ليلاً والتنزه لكنه أيضاً مهم للطريق فهو يأخذ السيارات التي تذهب إلى وسط المدينة والآتي منها لا يمر منه. تزينه مقاعد ولمبات كبيرة وضعت على أعمدة ضخمة كبيرة. وعدة مآذن جميلة، أو هي تشبه المآذن، كل اثنتين تقابل إحداهما الأخرى في ديكور جميل تنيره أيضاً لمبات تذكرني بالأيام القديمة ولك تلك الزينة مبنية على نظام الزخرفة الإسلامية الجميلة. من الجهتين يوجد بحر ولكن البحر الصغير المحصور بين الكوبري والشارع أهدأ، ويحده فندق كبير جداً بشكل قوس. اشترينا الترمس ونحن نثرثر ونتقل من مكان إلى آخر حتى أر كل تلك المحلات. وأخيراً وبعد أن انتهى الجسر وعاد متصلاً بالشارع الرئيسي قطعناه وأخذنا تاكسي للعودة للشقة مسرعين، ولكن دقت الساعة الثانية عشرة قبل وصولنا بدقائق وهناك بدأت أصوات ارتطام الزجاج بالأرض من العمارات. احتمينا بالحائط ودخلنا مسرعين. وقلت له:مثل سندريلا، يجب أن تعود في الساعة الثانية عشرة وإلا.....!

السبت ٢٠٠٥/١/١
الإسكندرية: شارع ميامي
الساعة السادسة مساءاً

(٩)

اليوم: السبت ١/١

استيقظت الساعة السادسة، صليت الفجر وبدأت أكتب. يمر بلال بجاني غرفتي عندما يتجه للوضوء. أدى الصلاة ثم جلسنا على تلك الشرقة المطلة.

أهم حدث في هذا اليوم أنني والحمد لله عثرت على علبة كبريت، لأن الغاز هنا لا يعمل بدون الكبريت، وفنجان القهوة في هذا الصباح كان مميزاً. شربناها بأكواب الماء المتوفرة، خفت أن يكون قد شربها من أجلي ولكنه أكد أنها ألذ قهوة. الحمد لله. خططنا لما سيكون عليه يومنا.

استيقظت إيمان فصنعنا الشاي اللذيذ أيضاً مع المعجنات. كل شيء هنا له طعم مميز. أخذنا التاكسي في الاتجاه الآخر إلى أقصر الملك فاروق الذي يسمى قصر المنتزه. كان يبعد حوالي ١٥كم عن موقعنا سمحوا للسيارة بالدخول إليه والحمد لله على ذلك إذ أننا لو دخلنا مشياً فلن نكتفي بالبوم للتمتع بتلك الحدائق المنسقة الألوان والأشكال، مشينا بالشارع الممتد والحدائق عن يمينه ويساره حتى وصلنا إلى دوار في المنتصف منسق الأزهار بعض النباتات أعرفها والبعض الآخر جديد عليّ، وقد رتبت حسب ألوانها بعضها كان بأوراق خمرية اللون وقد زينوا بها كل مكان بحيث تشكل ألواناً دائرية وسط الحشائس الخضراء أخذت صورة بقربه ووقفت هناك مشدوهة: ثلاثة قصور جميلة وقد بنيت بإتقان شديد وبينهما مسافات ليست بالقليلة، أحدها وهو الأوسط تحول إلى فندق لكبار الزوار

والثالث صغير. صحيح أنه صغير بالنسبة للبقية، لكنه كان كبيراً بالنسبة لنا، وهو مخصص لشرب الشاي فقط اسمه ركن الشاي كان الملك الراحل يتناول الشاي فيه مع ضيوفه وأمامه الحدائق ثم كوبري صغير بنهايته منارة وقد اقتطع من البحر جزءاً كبيراً لسباحته حتى لا يزعجه أحد وقد فتح هذا المكان للعامة في زمن ليس بعيداً. تحيرنا من أين نبدأ. وكان مجموعة جنود بجانب كل قصر يتحدثون فيما بينهم ويميزون بسرعة أننا لسنا من أهل هذا البلد. أخذنا الصور في كل مكان ثم جلسنا قرب الكوبري نتابع تلاطم الأمواج على صخوره الاصطناعية التي وضعت عمداً لئلا تأكل مياه البحر هذا الجزء من البحيرة، بعض الصيادين كانوا يصطادون الأسماك. هناك تعرفنا على عائلة مصرية تسكن الإسكندرية، دعونا لزيارتهم في منزلهم.

قضينا الوقت بالممازحة والضحك وأكل الآيس كريم، عندما كنت أرى الأمواج تقترب من الشاطئ بالزبد الأبيض الناصع كنت أقول لهم أن البحر عنده غسيل اليوم للملابس البيضاء وفي بعض الأماكن التي تختلط فيها الأمواج بالتربة ويتحول الزبد إلى ألوان غامقة وتختقي الرغوة بسرعة كنا نقول أن عنده اليوم غسيل ملون. ولكنه يغسل وفي كل مكان.

كان وقتاً رائعاً ننتقل فيه من مكان جميل إلى آخر أجمل، حتى انتصف النهار. ثم قفلنا راجعين بالتاكسي إلى مكتبة الإسكندرية الضخمة، التي تمثل ثاني أكبر مكتبة بالعالم بعد مكتبة واشنطن. ديكوراتها الغريبة والجميلة. نظافتها المتناهية. النظام والترتيب، يجعلانك تظن نفسك في أوروبا ولكن رجال الشرطة المصريين الذين يقفون هنا وهناك لحفظ.........ومساعدة الزائرين يجعلانك تتأكد أن هذا المكان

هو بلداً عربياً. أخذنا الصور التذكارية من الخارج لأن أبواب المكتبة تفتح اليوم في الثالثة عصراً. وقفلا عائدين مشياً من الشارع الخلفي الذي به جامعة الإسكندرية، لهذه المدينة القريبة من القلب رمز محدد تجده في كل مكان، وهو صورة منارة الإسكندرية. إنها مدينة قديمة وجدت قبل الميلاد بمئات السنين. مشينا ومشينا في شوارعها وأزقتها غير عابئين بما يصيبنا من كلل. أحياناً نسير قرب البحر وأحياناً نجلس إليه على الصخور. نطلق عليه من الألقاب ما يحلو لنا وأحياناً نمشي هنا وهناك نشاهد البنايات الشاهقة الارتفاع المنسقة بدقة. لا يوجد توازن بالشارع ومع ذلك فهو حالم، من الجهة الأولى عمارات عالية جداً صفت بعضها بجانب بعض ومن الجهة الأخرى شاطئ البحر. ولاشارع بينهما باتجاهين وبين كل مسافة ومسافة هناك أنفاق تحت الشارع متوسطة الحجم وقد رصفت على جوانبها بالبلاط الصيني الملون، عدنا مرة أخرى للمكتبة ولكن بعد أن مشينا في هذا اليوم وحده حوالي ٨كم. دخلنا لذلك الصرح المميز، لم تكن لتكفي صور الكاميرا التي معنا، فقد أنهينا فيلماً ونصف الفيلم بنصف يوم فقط، بدأ التعب يجردنا من حماسنا الذي واكبنا طوال اليوم، أخذنا العربة التي يجرها الحصان عائدين مرة أخرى في نفس اتجاه الشقة إلى المطعم ثم إلى الشقة لبعض الراحة وفي هذا الوقت الذي أكتب به.

أستميحكم عذراً فعليّ أن أصنع القهوة اللذيذة مرة أخرى وأن أوقظ السكان الذين يشاركوني في هذا المنزل للخروج والسهر مع البحر في الليلة الأخيرة هنا فقد شارفت الساعة على الثامنة مساء.

شارع ميامي/ الإسكندرية
٢٠٠٥/٦/١

سألت مضيفي: لماذا يخلو قصر الملك فاروق من الزوار؟

فقال لي إن هذا الوقت ليس وقت سياحة فهو فصل الشتاء ولكنه بالنسبة لي فصل خريف. كنت أرتدي الثياب الصيفية بينما الناس هنا في مصر يرتدون الملابس الشتوية ولكن أهم شيء أنهم لا يحتاجون للمدافئ. فدرجات الحرارة معتدلة ولكنها بالنسبة لي أكثر من ذلك.

إلى أن شربنا قهوتنا وارتدينا ملابسنا استعداداً للخروج كانت الاسعة قد قاربت العاشرة مساء. قفزنا ثلاثتنا على الدرج بعد أن أخذنا المصعد كان بلال يحيّي حارس العمارة في الصعود والإياب بالنيابة عنا الثلاثة، أحدهم كان يجلس دائماً مع رفيقه في الأسفل عند المدخل يتحدثان أو يصنعان الشاي والآخر كان يجلس فوق في غرفته الصغيرة قرب المصعد حيث هذاك ممرات ضيقة بين أجزاء العمارة الكبيرة حيث تستطيع أن تشتم من هذا المكان رائحة الرطوبة لأن أشعة الشمس لا تستطيع أن تصل إلى هذا المكان.

دفلنا إلى محل العصير أولاً عند رؤيتهما لحبات الجوافة الكبيرة المرصوصة فقد وشت ابنتي لزوجها أنني أحب عصير الجوافة، طلبنا كوبين لأن إينمان لا تريد. قال لها سنأخذ الآيس كريم بعد قليل. انتظرنا خارج المحل نشاهد الحقائب والأحذية في المحلات المجاورة، أما بلال فقد كان ينتظر إلى أن ينتهي الرجل من تحضير العصير. انتقلنا إلى محلات النوفوتيه المجاورة ولكن الرجل لم ينته بعد. عدنا مرة ثانية وثالثة ثم نادينا بلال ليختار بدلة رياضة له ولكننا لم نشتر شيئاً. مرت حوالي نصف ساعة والرجل يعد العصير. عدنا مرة أخرى والحمد لله أنه انتهى. أخبر بلال أن الخلاط الذي يستعمله جديد

وأنـه لا يـتقن اسـتعماله. أخـذنا الماصّـة وبـدأنا نشـرب العصـير ولكننا فوجئنا بالقطع الكبيرة، أرباع الجوافة ما زالت في الكوب. طلبت من بلال أن يأكلها لئلا ألوث ملابسي. ضحكنا كثيراً علـى هذا الرجل الذي (غاب غاب وشو جاب). ثم انتقلنـا إلـى محـلات الآيس كريم المجاورة وكانت مشكلة بالنسبة لي مسألة الاختيـار، فأنا لا أعرف الأطعمة عندهم، أحياناً أختار بحسب اللون وأحياناً بحسب النكهة.

- هل يوجد عندك بوظة عربية بطعم المستكة.
- يوجد مستكه بطعم الفانيلا فقط.
- إذن أعطني منها
- وأنا بطعم الشوكولا
- وأنا أريد بوظة بالكاتو

فقد اختلطت في الأخير البوظة برقائق الكيك الكبيرة. مشينا بضـع خطـوات. تفضـل تـذوق، وأنـت تـذوق وأنـت... كانـت موضوعة بقراطيس بسكوت كبيرة مع معلقة ملونة صغيرة.

- لقـد عودتمـاني أشـياء كثيـرة فـي هـذه الرحلـة. أن آكـل فـي الشـارع وأتحدث فـي الشـارع. وأحيانـاً أخـرى نضـحك ولكـن الشيء الجميل في هذا المكـان ألاّ يتابعك أحد بنظراتـه فهذا يشعرك بالحريـة بالتصـرف فكل واحد لـه أمـور نفسـه فقط. لأنك لو شـعرت أن أحداً مـا يتابعك بنظراتـه فـي كل خطـوة فإنك ستتصرف بجديـة واتـزان وستختفي حريتك داخل هذا الاتزان المصطنع. قطعنـا الشـارع وبـدأنا مشـوارنا المشـهود على الكورنيش. البحر وهواؤه العليل من اليمين وأصوات السيارات من الجهة الأخرى وكنـا كلمـا مشينا نصـف سـاعة

جلسنا على تلك المقاعد المنتشرة في كل مكان. سألت محدثي كيف تقول أن هذا المكان يكتظ بالمصطافين في أشهر الصيف فالمدينة كبيرة جداً والمقاعد والجسات التي يظللها الكرميد الأحمر مثل.

- لأنه يشفي العليل، أجبته بسرعة.
- وهل يعود معنى هذه الكلمة إلى عكسها.
- لا فقط أمزح معك. ولا أعرف لماذا ومن الممكن أن هناك اشتقاقاً لا نعرف معناه لتلك الصفة.
- من الممكن أن تعود إلى كلمة يتعلل أي يسهر لأن نسمات الهواء تلك تشارك الساهرين.
- لا أعرف ذلك فقد ذكرتني بزوجة الدكتور عبد الرشيد من روسيا عندما كانت تندهش من كثرة تعدد معاني الكلمات باللغة العربية وكانت تصاب بالإحباط أحياناً لأنها مهما درست فهناك الكثير من الكلمات التي لا تستطيع أن تعرف معناها.

تحدثنا كثيراً ومشينا كثيراً وجلسنا أحياناً كثيرة وكنا نجلس على تلك المقاعد الخشبية التي اتسخت أحياناً على المكان الذي يجب أن يتكئ عليه ظهورنا ونضع أرجلنا على المكان الذي نجلس فيه لئلا تتسخ ملابسنا قبالة البحر نتحدث قليلاً ثم نبدأ المشي مرة أخرى ونجلس على المقاعد النظيفة المصنوعة من الرخام لتلك الجلسات.

سألته مرة أخرى ونحن ننظر للبحر:

- أريدك أن تخبري بصراحة هل تشعر بأن ما قيل عن الحموات صحيح أو أن مجموعة كبيرة من الناس غيّرت هذه المفاهيم.

- احتار كيف يجيب ثم قال زوجة عمي أنت مختلفة وتمتلكين صفات جيدة ولكننا لم نعش المدة الكافية بالقرب منكم لنحكم على الأمور.

- كانت هذه الكلمة مثل الصدمة بالنسبة لي. فصحيح أننا نعيش بعيدين أنتم في بلد ونحن في بلد آخر ولكننا نتزاور في السنة أكثر من مرة والمكتوب يقرأ من عنوانه. أفلا يعطيك هذا انطباعاً حسناً؟

- تهرب من الإجابة ثم ضحك معتذراً أريد أن أسألك وتجيبي بصراحة تامة، وكأنه يشير إلى شيء آخر يخص والدته وزوجته على ما أعتقد.

- ألم تشعري بالخوف عندما تزوج ابنك من أن زوجته ستأخذه منك بالتدريج؟

- ضحكت وقلت له كم مرة أخبرتك أنني مختلفة عن الآخرين وأني لا أشعر بمشاعر الأغلبية العظمى من الأمهات ورددت ابنتي معي في نفس اللحظة: ماما غير، أي تختلف.

- عندما ربيت أولادي صغاراً لم أضع في حسباني في تلك المرحلة من أعمارهم أني أربيهم ليخدموني أو يتعنوا بي عندما أكبر فقد كنت صغيرة السن ومتدينة إلى الحد الذي أستطيع أن أخبرك به أنني ربيتهم في سبيل الله على نية أن أكسب من الله الأجر العظيم وعلى نية أنهم سيخدمون وطنهم عندما يصبحون شباباً وعلى نية أن يذهبوا لزوجاتهم ولم

أشعر في لحظة معينة أنهم لي. أنا لا أملك منهم إلى المعاملة الطيبة فكما أخذت زوجي وكان لي بكل جوارحه وعواطفه يوماً من الأيام فر بد أن يأتي يوم لأنشئ هذا الولد أو ذاك لزوجته. وهو لن ينساني ولن يبتعد عني إذا أحبها. لكل منا موضع في قلبه مختلف عن الآخر ولا مجال للمقارنة ولو نزلت من موضعي لهذه المقارنة لأهنت نفسي ووضعتها في مجال هي في غنيً عنه وصدقني إن أجمل اللحظات عندي عندما أراه مسروراً مع زوجته يرعاها ويخاف عليها وأنها تحبه وتخاف عليه، فإني أشعر بالسعادة تغمرني لأني أستطيع أن أنقص واحداً من المجموع الذي أخاف عليه، ولارتحت من طرفه لأن هذا كان هدفي عندما زوّجته، أن تأتي أخرى لترعاه وتخفف عنّي عبئاً كبيراً، فهي توقظه على عمله، وتغسل له ثيابه، وتحضر له طعامه، وترعى جلّ أموره بدلاً عني، فقد أخذت عني حملاً ثقيلاً وكلما كانا سعيدين فإن الحمل سيخفف أكثر.

- ثم أسهبنا كثيراً في هذا الموضوع وانتقلنا إلى مواضيع أخرى ثم سألنا بلال هل تقدرون كم الساعة الآن؟

- لا
- إنها الثانية ليلاً
- غير معقول
- والله إنها لكذلك
- لو سألتني قبل أن أعرف لقلت لك إنها الحادية عشرة . ولكن..
- لكن ماذا. نحن هنا نستمتع بقرب البحر

- أخاف أن أتعب من المشي
- ولم الخوف. عندما تشعرون بالتعب سنقطع هذا الشارع. نأخذ تاكسي ونعود للبيت.
- ولكني لا أحب أن نصل لدرجة التعب تلك.
- لماذا.
- حتى نستطيع أن نمشي غداً أيضاً فأمامنا برنامج حافل.
- من هذه الناحية لا تخافي سنرتاح ليس إلى السادسة بل إلى السابعة.
- على كل حال لست مهتمة. فأنا أعيش جواً خيالياً لا يستطيع فيه التعب التسلل لهمتي.

جلسنا مرة أخرى على تلك المقاعد العالية التي تبذل جهداً للوصول إليها لأنها مرتفعة أكثر من اللازم. وكانا يجلساني بينهما.

- لا أريد أن أبعد أحدكما عن الآخر.
- نحن دائماً معاً أما الآن فنحن معك.

طلبت منها أن تجلس بقربه حتى ولو قالا ذلك.

- لماذا؟
- في هذه الأجواء رحلة وسعادة وليل ونسيم، أنا أعرف أن الواحد منكما يجب أن يكون قريباً من نصفه الآخر.

ثم لبيا ما طلبته منهما وقلت لهما هل أستطيع أن أستأذن منكما لأجلس بضع دقائق وحدي مع البحر.

- تفضلي.

مشيت خطوات قليلة وكان بقربي درج مهترئ يودي إلى صخور البحر. نزلت تلك الدرجات دون أن أنظر خلفي لهما. كانت حوالي عشر درجات ثم نظرت خلفي، لم يعودا يرياني، وقفت على الصخور قريبة فمن أول وصولي إلى الآن لم ألمس ذلك البحر مع أنني قريبة جداً منه، أحسست بوجودهما خلفي فقد تبعاني فوراً.

انضممت إليهما قائلة: كان البحر يريد أن يخبرني بشيء.

- وما هو

- لا أريد أن أقول فقد أخبرني سراً.

- أرجوك يا ماما ماذا أخبرك؟

- ما أخبرني به ليس كلاماً يقال. ولكنه شعور يحس، ولا يخبر عنه.

- هذا البحر عظيم يريد أن يخبرنا بشيء واحد وهو عظمة الله سبحانه وتعالى خالقه.

يريد أن يقول لنا أن الذي خلقه كبير وقوي وعظيم.

- ازدادت معاني تلك الكلمات مع اشتداد السواد وحلكته ومع اقترابنا لمكان ليس فيه أحد.

- سبحان الله لو أنك تفكرت في البحر في كل مرة تجلس إليه لأعطيته صفة غير التي تكون قد أعطيته إياها بالأمس فهو مرى يكون هادئاً وأخرى غضبان، وثالثة مثل الإنسان اللعوب الذي لا يفتأ يتلاعب بأمواجه هنا وهناك وأحياناً مثل المشاكس الذي يرشقك بأمواجه بينالحين والآخر، وأحياناً يعطيك صفات الجدّية بثباته بمكان وبكبر مساحته ثم

يتراقص أحياناً أخرى مثل صحن كبير يترجرج فيه (الجلي) وهو نوع من أنواع الحلويات الهلامية.

- أما الآن فهو يغسل. قالتها بكل مرح. بلال أرجوك أن تسمع أمي بعض اناشيدك الجميلة.

بدا متردداً ثم قال: أيّ أنشودة؟ .. فأنا لا أحفظ أي أنشودة كاملة.

- أي شيء تريده.

- أنا أعرف أن صوتك حنون، سمعتك مرة تدندن، وسمعتك وأنت تقرأ القرآن.

طلبت منه أكثر من مرة وهو يتملص خجلاً مني. فقلت له: إذا كنت تخجل مني لهذه الدرجة فسأبتعد.

- لا لا. سأبدأ الآن. ثم بدا أنه خجل حقاً.

ليس بمشكلة، سنبدأ ثلاثتنا بنشيد جماعي حتى نشجعك.

- احمر وجهه. حتى ولو كان الوقت ظلاماً، فأنا عرفت. ثم سمعنا هذه الرقة وتلك العذوبة.

- لماذ تسمعنا أناشيد حزينة.

- لا أحفظ إلا تلك. وهذا ما حذى بصديقي أن يخبرني مرة أنه اشترى لي شريط كاسيت جميلاً، وعندما سألته هل هو حقاً جميل؟

- نعم إنه كالنواح الذي تردده دائماً.

- ضحكنا ثم أكمل هذه الأنغام حتى وصلنا لمكان آخر.

* * *

في أول يوم قدمنا فيه لهذا المكان قلت لهم ليت كل الناس الذين يمشون بالشارع الآن يتجمدون ويتحولون إلى حجارة.

- لماذا

- لأن هذا الحذاء المريح يثير بي شعوراً بأني أحب أن أركض

- وما المانع؟

- وهؤلاء الناس؟

- وماذا يغيرون من الموضوع؟ نحن لا نعرفهم وهم لا يعرفونا

- لكني أعرف نفسي. ولا أريد لهم أن يشاهدوني.

وفي المرة الثانية بينما كنا في نفس المكان قلت لهم مرة أخرى: لو أننا تحولنا إلى كائنات غير مرئية.

- لماذ أيضاً

- حتى لا يرانا أحد ونحن نركض.

ضحك مرة أخرى وكان هناك مكان قريب يقول عنها بلال إنها (لسانات) فهي ممرات مرصوفة ببلاط تتعامد مع الشارع في وسط البحر عرضها حوالي ١٠متر وطولها مئة متر تقريباً وقد صفت المقاعد الرخامية فيها متقاربة ولكنها الآن تخلو من أي أحد. فلنتسابق ثلاثتنا، اقترح بلال.

- نعم الرأي.

- تسابقنا على دفعات مع الاستراحة وأحياناً كان الضحك يمنعنا من الركض. أشعر عندما أنطلق مسرعة أنني ملكت نفسي حرية من التقوقع بهذه الشخصية أمام الناس بالتزام

الاتـزان ولكـن لا بـأس لـبعض الوقـت بـالترويح عـن الـنفس المضغوطة بالروتين والعمل.

- هل تعبت؟ سأل بلال

- على العكس فقد ازددنا نشاطاً، ولكن متى نعود للبيت.

- عندما تشعران بالتعب.

- سنمشي إلى أول الكوبري ثم نعود. ما رأيكم؟

- كما ترغبون.

- ولكني أريد أن أعرف كم مشينا؟

- أنا أقدّر بحوالي ٨ كيلو.

- وأنا أقدرها بعشرة. وكيف سنعرف ذلك؟

- سأنظر إلى عداد التاكس أطرح الرقم ثم نعرف.

- الحمد لله فلنعد للبيت إذن فالساعة ربما قد تجاوزت الثالثة.

- هكذا هي.

قفرزنـا ثلاثتنـا للجهـة الأخـرى ثـم أوقـف إحـدى سـيارات الأجرة. وكما أخبرتكم من قبل كلها قديمة ونفس الشكل، تشبه سـيارات الـلادا بـألوان صـفراء وسـوداء، أمـا فـي القـاهرة فهـي بيضاء وسوداء. تكلم مع السائق قليلاً ثم قال لي: لا يوجد عداد.

- لمـاذا. فلنأخـذ تكسـياً آخـر. ولكنـي لـم أقـل هـذه الكلمـة علـى محمل الجد، فقد قصدت النكتة، ولكن السائق أردف قائلاً من هنا لشارع خالد بن الوليد ٥كيلو متر.

كرهت السائق وتمنيت أن أعرف بالضبط لأن المشي الذي مشيناه صـباحاً أكثـر بكثيـر بقصـر المتنـزه والمشـي بـين المكتبـة وقصر المدينة .

عندما عدنا للبيت اتجها للثلاجة وأخذا بعض المعجنات

- هل تريدين؟
- لا........أحب أن أنام خفيفة.
- أيها القائد متى يجب أن نخرج غداً... سألت بلال.
- نستطيع أن نؤخر الموعد إلى السابعة والنصف.

فقد احتسب بدقة كم يأخذ وقتاً زيارة قلعة قايتباي والمتحف البحري وشراء فيلم وأخذ بعض الصور على كوبري ستانلي قبل العودة إلى الكاراج ثم القاهرة.

(١٠)

من الغريب أنني استيقظت في السابعة إلا خمس دقائق، فالفجر يؤذن في الخامسة والنصف والشمس تتأخر في الظهور.

.........توضأت ثم ذهبت أتفقد القهوة فإذا بلال ينادي: متى استيقظت........؟

- قبل قليل

شربنا أكواب القهوة الكبيرة قبالة البحر كان الجو قد استبدت به رياح باردة. ولكن ذلك لم يؤثر فينا، وكما قلت لكم من قبل بالنسبة لي هذه البرودة لا تعني شيئاً. لأني اعتدت على برد الزرقاء القارس في الأردن.

ارتدينا ملابسنا ورتبنا أغراضنا في الحقائب وخرجنا حوالي الثامنة تحسباً ألاّ تكون محلات الأفلام قد افتتحت أعمالها وبدأ يومها. نزلنا أولاً إلى المحل الذي يقع في منطقتنا ولكنه مغلق، كان بلال يريد أن يأخذ لنا صوراً على ذلك الكوبري. أوقف سيارة وطلب منه أن يأخذنا إلى محطة الرمل لأن هناك محلات للتصوير. كنت أظن أن هذه المحلات مختصة بترتيب الرمل في زجاجات مثل بلدنا أم أنها تحتوي على الرمل ضمن شوارعها، ولكنها لا هذا ولا تلك ولا علاقة للرمل بالأمر، فقد اسمها كذلك. أوصلنا السائق ولكن للأسف أيضاً فوصف له محلاً ثالثاً ورابعاً ولكن كلها لم تفتح بعد.

قلت له لا تحزن لعل الله يريد شيئاً آخر. ونحن لا نستطيع أخذ كل شيء نريده. سأصور هذه المنطقة بذهني أيضاً أمر السائق بالذهاب لقلعة قايتباي الشهيرة. ما أجملها...!.. تستطيع

أن تراها من كل مكان لأنها تجثم على آخر بقعة من البحر. اقتربت القلعة شيئاً فشيئاً، كلما سارت السيارة. قال بلال معلقاً: السماء ملبدة بالغيوم ومن المحتمل أن تمطر هذ   ا اليوم.

علق السائق: لا أعتقد، ستزول تلك الغيوم بعد قليل عندما ترتفع الشمس بالأفق، وأنا أيضاً اعتقدت ذلك، لأن حرارة الجو تكون على أوجها ظهراً، وتكون قليلة صباحاً ومساءً. وأخيراً هذه القلعة بعظمتها وثباتها أمامنا يتلألأ لونها الأبيض وأحجارها الجديدة وكأنها بنيت منذ عهد قريب. تتميز بشكلها المربع وتذكرني بأحجار الشطرنج التي صنعت على شكلها، تقدمنا من البوابة ولكن الحارس الذي يرتدي ملابس كحلية اللون أخبرنا أن القاعة لم تفتح أبوابها بعد.

- ومتى تفتح بوجه الزائرين؟
- الساعة التاسعة.
- وكم الساعة الآن؟.
- التاسعة إلا عشرة. أجاب باتسامة لطيفة.
- إذن ستجدنا إن شاء الله بالتاسعة وخمس دقائق.
- أهلاً وسهلاً

لففنا حولها من الجهة الأولى حيث كانت مجموعة من الطلبة تنتظر مثلنا كانت أعمارهم تتراوح بين الثالثة عشرة والخامسة عشرة. تسلقوا السور ثم بدءوا يلعبون الكرة ولكن حدث ما لم يكن في الحسبان، فالكرة سقطت بالبحر. كانت مسافة ليست بالقليلة وليست بالبعيدة تابعة للبحر ولكنها مفصولة عنه بأحجار كبيرة أيضاً وضعت هنا صخور اصطناعية لئلا يأكل البحر من أجزاء القلعة وقد سقطت بها الكرة، راقبنا

انفعـالهم، فالمـاء بـارد ولـن يسـتطيع أحـد الغـوص وقـد تجمعـوا حولهـا ينظـرون إليهـا. قلـت لـبلال إن هـؤلاء الطلبـة يشـعرون شـعوراً جمـيلاً الآن، لأنهـم كلهـم وحـدّهم هـدف واحـد ألا وهـو إحضـار الكرة مـن المـاء، جمعت هـذه الكرة تفكيرهم كل مـنهم يفكر على طريقته الخاصة، ولكن الهدف الذي يسعون إليه واحد وهو: كيفية الحصول عليها دون الغطس بالماء البارد.

اقتربوا من الشاطئ وانتظرت مجموعة منهم في مكـان لأن الصخور التي تفصل البحر كبيرة بينما جعل أحدهم طريق المـاء إلى المكان الذي يريدون بواسطة عصا طويلـة، وعندما وصـلت الكـرة لأيـديهم فرحنـا لهـم ورددنـا بعض مقـاطع النشـيد إلـى أن مشى الوقت، وكل نشيد من تلك التـي رددناهـا يـذكرني ذكريـات كثيرة منها كيف ساعدت ابنتي بحفظ نشيدة «سـنخوض معاركنـا معهم» وكيف ساعدها والدها بحفظ «اسلمي يا قدس إنـا للفدى» حدثتهم بالقصص التي تذكرتها.

فضّل بلال أن نتـأخر خمسـة دقـائق حتـى يكـون الافتتـاح قد تم. كان الطلبة قد سبقونا وكان الجو يزداد برودة، قطعنا التـذاكر وأعطـاني بـلال إحـداها لأحـتفظ بهـا للـذكرى مـع المجموعـة – تذكرة المكتبة وقطار المترو وتذكرة الحافلة – انتقلنا بسرعة من مكـان لآخـر وكـان بـلال قد ضـبط هاتفـه النقـال ليـذكره بالسـاعة العاشـرة والثلـث حتـى نعـود للبيـت ونسـلم الشـقة ونشـتري الفـيلم كانت تنغصنا ثلاثتنا فكرة أننـا لا نسـتطيع أخـذ الصـور للـذكرى. قال لـه العسكري هل تريد أن أسـاعدك بالتقـاط صـورة لأنـه رأى بلال وهو يسير والكاميرا تتدلى من يده.

- لا شكراً.

فقد سمعني وأنا أحدث ابنتي ونحن نسير على الدرج: نحن أهم وفد تستقبله القلعة هذا اليوم. فعلقت قائلة: بل لهذا العام، ولكن لم أكن أعلم أن العسكري خلفنا ولكنها أضافت: حتى لو سمعنا فهو لا يستطيع فهم ما نقول لأن لهجتنا تختلف. كانت الجدران سميكة جداً الداخلية والخارجية، وكانت تتألف من ثلاثة طوابق، وكل طابق يحوي ماشاء الله من الغرف والقاعات التي تمتد إلى الأسطح المختلفة، فإنك لا تكاد تعرف إلى أين تؤدي هذه الطريق أو تلك وكان الطابق الأول مسجداً والطابق الثاني يضم غرف الجنود والطابق الثالث غرفاً للسلاح والعدة، في غرف متعددة ومناور متعددة ولكنك عندما تنظر من أي مكان فإنك ترى البحر من الغرف ومن السطح فهو يحدها من الجهات الثلاث. انشغل بلال بالرد على هاتفه النقّال يتكلم معه زملاؤه في العمل يسألونه عن الطلبيات وعن حماته وهل يحسن استقبالها. وكبس زراً في هاتفه وهو يضحك وخرج صوت زميله المتكلم بصوت عال ولكني قلت له بعد أن أنهى المكالمة: لم أفهم أي كلمة. فقال إن زميله يقول هل يجب أن تراعيها وتعتني بوجودها وأن هذه المراعاة ضرورية جداً لحياته وخصوصاً من أجل زوجته.

قلت له ما هو رأيك ما دام كل أصدقائك مهتمين جداً بزيارتي أن تعقد مؤتمراً صحفياً قبل مغادرتي.

- ولماذا
- وحتى أعترف وأخبرهم جميعاً.
- بماذا........ وهو يتحزر ماذا سأقول.
- سأعترف بأن ليس لك مثيل وأنك أفضل الجميع حتى يغار منك ويحسدوك على محبة حماتك لك.

اعتبرها مزحة جميلة وتابع معنا استكشاف المكان وكنا نخترع نكتاً تليق بكل بقة ونتصور ماذ كانوا يفعلون في تلك الأمكنة والغرف وإنها الآن مضاءة بأباريز ووصلات كهرباء. هنا كانوا يضعون التلفزيون وهنا.........وهنا.........

سألت العسكري الذي كان يحرس القلعة من الداخل بينما كان بلال يجيب على أسئلة زميل آخر ويتابع العمل في كل أجزاء إجازته ولكن دون أن يؤثر ذلك فينا: هل هذا الشباك الخشبي وضع حديثاً أم أنه قديم؟

أجاب بأن فقط ما أضيف على تلك القلعة هو فقط تلك الشبابيك الصغيرة اليت صنعت من الخشب على شكل نوافذ صغيرة أيضا. أجبته والكهرباء أيضاً فقال والكهرباء أضيفت حديثاً جداً.

توافدت أفواج من طالبات المدارس للدخول لهذه القلعة بينما كنا نهم بالخروج حين استقبل بلال مكالمة أخرى من صديقة وكان ضمن ما يسأله عن الطقس.

الحمد لله جيد ولكن الآن بدأ يبرد قليلاً عندما بدأت قطرات من الماء النزول ثم ازدادت بسرعة عجيبة. دخلنا المبنى المجاور وهو معهد الأحياء البحرية. لأنه ضمن البرنامج ولنحتمي من المطر والهواء البارد. راقبنا السلاحف المائية التي وضعت في أحواض خارج القاعة المخصصة للأسماك إلى أن يشتري التذاكر. أعطاني أيضاً إحداها ثم تابعنا تفقد تلك الكائنات. كانت فقط بأعداد قليلة وعندما قارنتها بالمحطة التي توجد في العقبة كانت الثانية تفوقها مساحة وأنواعاً من الأسماك والكائنات البحرية الأخرى وعندما انتهينا منعاً أعدنا زيارتها

مرة أخرى لغزارة الأمطار في الخارج ولكننا أخيراً خرجنا فقد خفت برودة الطقس وامتص المطر جزءاً كبيراً منها.

عرض علينا بعض الباعة فيلماً لكاميرتنا ففيلمها كان صغيراً ومميزاً ويحوي أربعين صورة ولكن بعد أن أحضروا لنا رجلاً يملك هذا النوع كان يطلب به سعراً مضاعفاً تركناه وعدنا بالسيارة إلى البيت. كان المطر قوياً جداً سألت إيمان: كيف سنغادر في هذا الجو؟ قلت لها لا تفكري الآن بالمغادرة فربنا سيغير أشياء كثيرة وجمال المنظر الآن لا يعلو عليه شيء ودعينا نستمتع بجمال اللحظة. طلب بلال من سائق التاكسي أن يعرف كم المسافة التي مشيناها أمس مساء، من ذلك المكان الذي وصلنا إليه كانت الشوارع تمتلئ بمياه الأمطار فعلقت على هذا الأمر: هناك يغسلون من الأمطار الشديدة ويركضون في الشوارع وكنا نشعر بوجودنا في سيارة. أخيراً وصلنا للبيت فكانت المسافة ٦,٥ كيلو متراً. الحمد لله أنه لم يكن كما قال السائق الأول.

- قلت لهم عندما نزلنا من السيارة كم هو غشاش هذا السائق.
- لماذا
- لأنه لم يحسب المسافة التي كنا نمشيها بالعرض على تلك اللسانات كما يطلقون عليها، فقط احتسب المسافة التي كنا نمشيها على الشارع.

تذكرت ابنتي سارة بينما كان يصدح صوت فيروز من جهاز السيارة فقد كانت تقلد صوتها الحنون الناعم.

أول شــيء فعلنــاه عنـدما وصـلنا هـو أخـذ بعـض الصـور التذكاريـة فـي هذه الشـقة الجميلـة وخصوصـاً الشـباك الـذي كنـا نجلس عنده لشرب القهوة.

رتبنـا ملابسـنا فـي الحقائـب وانتظرنـا الرجـل ليأخـذ مفتـاح الشقة بعد ما اتصلنا به مرتين ولكنه تـأخر. حملنـا حقائبنـا. طبعـاً بـلال الـذي لـم يكـن ليسـمح لأي منـا بتنـاول شــيء غيـر حقيبتهـا الصـغيرة، فوجدناه فـي المصـعد. عـاد معـه قلـيلاً بينمـا انتظرنـاه عنـد الـدرج ثـم نزلنـا. كـان الهـواء قويـاً. أوقفنـا التاكسـي وهنـاك يضعون الحقائب على القفص الموجود على ظهر السيارة ولـيس كما نفعل نحن، نضعه في صندوق السيارة. أمر السائق بالتوقف على كوبري ستانلي لنأخذ هناك بعض الصـور علقت قائلـة بـأن الصـــــــــــور ســـــــــــتطير مـــــــــــن أيـدي مـن ينظـرون إليهـا لأن الهـواء كـان شـديداً. مررنـا علـى سيدي جـابر المنطقـة التـي يسـكن بهـا مسـجد سيدي أبـو العبـاس هكذا يقولون وهناك على الطريـق بين المطـار والهـرم مجموعـة كبيرة من المساجد الضـخمة قديمـة الطـراز وجميلـة التنسـيق قـال لـي بلال أيضاً أنها كلها مقامات لأولياء. وأخيراً وصلت السـيارة إلى المجمع وهناك كانت الحافلة الكبيرة بانتظارنـا. أسـرع بـلال بالوقوف على الدور وشراء التذاكر وعاد سريعاً.

- الحافلة ستتحرك الساعة الواحدة.

- الحمد لله وكم الساعة الآن؟

- الثانيـة عشـر والنصـف. هنـاك دوار قريـب مـن هـذا المكـان أريد أن آخذ لك صورة بـه، فهو جميل ومنسق.

- ولكن الآن! لا يوجد وقت.

- بـل يوجـد معنــا نصـف ســاعة فمــا كــان منــه إلا أن حمـل الحقيبتين الكبيرتين كل واحدة بيد ومشى.

ألا نستطيع وضع الحقائب بالحافلة؟

- لم تفتح أبوابها الداخلية. وليس هناك مشكلة. نستطيع أخذها معنا. كان المكان مزدحماً والسماء تصفي آخر قطرة لديها م الماء والأرض مبلولـة بسـائل أسـود اتسـخ مـن بنطالـه فـاتح اللون. مشى في الشوارع ونحن خلفه مسافة ٥٠متراً ثم رأى أنـه مـن الأفضـل لذلك الـدوار أن نأخذ تـاكس مـع أنـه قريـب وذلك لسـهولـة الحركـة واللف حـول هذا الـدوار الـذي يسمى فكتور عمانوئيل. التفت السيارة بنـا. اختـار مكانـاً مناسباً ثـم طلـب منـه الوقـوف. جلسـت علـى حافـة ذلـك الـدوار وسـط الجموع المحتشدة من الناس الذين يمرون من هنا وهناك إلى إعمالهم، أخذت الصورة ثم عدنا للسيارة، أمره بالدوران فـي تلـك المنطقـة قليلاً لأرى تلـك المنـاظر: بيـوت قديمـة عتيـدة وناد لأصحاب الجياد بالإضافة إلى نادي سموحة القريب من المجمـع عـدنا لـه بعـد أن دفـع للسـائق ٥ جنيهـات وقلـت لـه سـيكون ثمــن هــذه الصــورة ٥ جنيهــات بالإضــافة لكفتهــا الأصلية، كـان النـاس قد بـدءوا يـدخلون حقـائبهم فـي الحافلـة الضخمة وكان الرجل المسؤول عن ذلك يعطي تذكرة تحمل نفـس الـرقم لصــاحب الحقيبــة بعـد أن يلصـق الأولــى علــى الحقيبة.

قال بلال الأغلب أن التذاكر التي معنا هي للطابق الأعلى.

- ولكني ابنتك أولاً وقبل أن أكون زوجته.

- كنت ابنتي أولاً ولكنك الآن زوجته، فانتماءك الأول كان لـي أما الآن فهو له.

ضحك وهو ينظر إليها: ألا ترين. أنا لم أقل أي شيء هي قالت. وعندما دخلنا أسررت لها ألست سعيدة بمثل هذا الكلام. لأني كنت مثلك في يوم من الأيام وكنت أسعد عندما تقول لي أمي أشياء كهذه.

من أعجبتك أكثر القاهرة أم الإسكندرية؟ سألني بلال.

- الإسكندرية فقد شعرت أنها مدينة حميمة.

- لو جئت في فصل الصيف فلن تجدي مكاناً لقدمك هناك.

أيعقل هذا. مع أنها كبيرة جداً وشوارعها واسعة جداً.

- وما أكثر ما أثار فضولك فيها؟

- قصر الملك فاروق الذي يسمى قصر المتنزه أثار دهشتي وقلعة قايتباي نقلتني لحقبة مرت من التاريخ، والبحر أثار مشاعري، وحركني من الداخل، كوبري ستانلي جميل جداً، وأظنه كان حلماً حقيقياً. وأشياء كثيرة كنت فقط أسمع فيها والآن علمت ما هي مثل: المرسي أبو العباس ومسجده الكبير، قصر السلاملك، أحد قصور الملك الراحل فاروق والمعمورة. محطة الرمل وسبورتنج، المنشية، سيدي جابر، وسيدي بشر المنطقة القريبة من ميامي التي تسكن فيها وأخيراً ذلك الصرح للجندي المجهول الذي يقف جندي بملابسه الرسمية الجميلة عن يمينه وجندي عن شماله دون أن يتحركا، هكذا كأنهما جزآن من المكان. ألا يمكن أن يجعلوا مكانهما جنديين من الشمع بدل هذه الطاقة المهدورة لإنسانيين. رجلان يستطعيان أن يعملا عملاً آخر ويخدمان بلدهما بشكل ثان. فهما لا يتحركان إلا إذا جاء وقت تبديلهما بجنديين آخرين.

في هذا اليوم الاثنين آثرت البقاء في البيت للراحة مع الاهتمام بأمور الغسيل والجلي.

(١٢)

أتدرون ما أكثر ما أعجبني في مصر. قد تستغربون أو قد لا تصدقون. إنها الأشجار. فلم أتعود على رؤية أشجار عظيمة بهذا العدد تملأ الشوارع والأزقة والبيوت والساحات. الأشجار الموجودة في بلدي جميلة ولكنها صغيرة جداً وتستطيع أن تحيط ساقها بيديك، أما تلك فتحتاج أحياناً لستة أشخاص أو عشرة للإحاطة بها. وكأنها تقف هناك منذ ملايين السنين فلا أدري هل هذا الجو أثّر على تقديري للزمن أم لا. شعرت أننا مكثنا في تلك المدينة التي تسمى الإسكندرية عاماً كاملاً. أما الآن وأنا أقف بهذه الحديقة العظيمة التي تسمى حديقة الحيوان، لم أنظر إلى الحيوانا بقدر ما انتبهت للأشجار والحدائق والممرات الواسعة. كادت ابنتي تفقد صبرها وهي تريد أن تلتقط لي صوراً بجانب تلك الحيوانات، ولكني كنت فقط أريد أن ألتقط الصور للون الأخضر الذي ترسمه الأشجار المختلفة. كل الأنواع منها موجودة هناك. أخبرتها أنني أستطيع أن أجد صور الحيوانات في الكتب، وإننا سبق أن أخذنا صوراً مع الحيوانات في مرات سابقة ولم تكن معبرة عن الواقع، فقد كانت الإشاءة مختلفة داخل الأقفاص مع تلك الحيوانات الحبيسة التي تقول أعينها: ابتعدوا. أريد أن أخرج من هنا.

كان هناك حارس عند كل قفص يعطيك شيئاً تقدمه لذلك الحيوان وتمكنك من التقاط صورة لك وهو يلتقف منك الطعام بعد أن يفتح لك باباً آخر للقفص فكل بيت من تلك البيوت التي تقطنها هذه الكائنات الحبيسة له بابان. الأول يحبسه والثاني يحجز بينه وبين الزوار.

طلبت ابنتي من حارس الزرافة أن يفتح لنا الباب لتلتقط لي صورة وأنا أضع تلك القطعة من الجزر على لسانها. لم أكن أتوقع أن يكون لسانها بهذا الطول، فهي تلفه بسرعة عندما يوضع الجزر عليه وتأكلها وتنتظر حركة أخرى لتنال هذه القطعة مرة ثانية. أعطاني الرجل قطعة الجزر ولم أع شيئاً إلا صرخة من ابنتي فقدت توازني وقفزت خارج القفص مرددة: لا أريد إطعامها ولا أريد صورة. فقد كنت خائفة من الاقتراب قبل سماع الصرخة، وعندما سألت ابنتي لماذا صرخت قالت لي إن لسان الزرافة كان قريباً جداً مني وهي خافت إن أنا رأيته فجأة أن أرتعب فصرخت حتى أنتبه لذلك، ولكني خرجت من المكان بسرعة بعد أن أتحت الفرصة للآخرين الذين كانوا ينتظرون دورهم بمشاهدة منظر كوميدي يدعو للضحك.

وعند الفيل قررنا تكرار المشهد لأن ابنتي أصرت على الصورة، أعطاني الحارس قطعة جزر لأضعها له في خرطومه، فقد كان ينتظر القطعة وهي لم تستعد بعد للصورة، أعطيته القطعة مما دعا الحارس للإعطائي غيرها وغيرها إلى أن عرفت كيف تستعمل الكاميرا التي استعصت عليها في ذلك الوقت.

أحببت البط والبجع وخصوصاً حين تتسابق وتتشاجر على قطع الشيبس الذي نقدمه لها. أخذنا صوراً أخرى مع النمر بينما كان يلعق الحليب، والأسد مع زوجته، وعدنا دون أن نكمل المشوار لأن الحديقة كبيرة جداً وبقايا التعب لازمتنا من بقايا مشوار الإسكندرية، وعدنا قبل أن يعود زوجها من العمل لأن الحديقة تغلق الساعة الخامسة قبل عودته. في هذا اليوم لم يستطع العودة من عمله قبل العاشرة ليلاً.

عندما عاد بلال من عمله أحضر لنا فيلمي الصور من المحل، وصحيح أنها لم تكن بالمستوى المطلوب لأن هذه الأفلام غالية الثمن وتحميضها أيضاً يكلف كثيراً ولكن الحمد لله أفضل من لا شيء. لم نستطع تناول الطعام إلا بعد تصفحناها كلها، وفي المساء سهرت وأنا أكتب تعليقاً مختلفاً على كل صورة من الخلف. كان هذا التعليق يذكرنا بالحالة التي كنا فيها وأحياناً هذا التعليق يكون على شكل حوار كوميدي، ولم أنس طباعة المكان والتاريخ.

كان أول عمل لبلال عندما استيقظ وقبل الخروج إلى عمله الإطلاع على تلك التعليقات المضحكة كلها.

(١٣)

في هذا اليوم أيضاً كان مشوارنا صباحاً، فقط نحن الاثنتين لأنها تخاف الخروج وحدها من المنزل أولاً ولصعوبة قطع الشارع وثانياً لأننا أينما نمشي يميزنا الناس أننا غريبتان وكنا نجابه بالسؤال الآتي دائماً: من لبنان؟......... وأحياناً أخرى....من سورية؟..... تضايقت لأن أحداً لم يسألني إن كنت من الأردن أم لا. وخصوصاً أن الأردن أقرب لهم. ولكن ربما لأن ألوان الناس هنا تميل للغامقة وأي شخص تكون بشرته فاتحة فهو حتماً ليس من هذا البلد.

كنت سعيدة بالمشي في الحارات المجاورة لهم وذلك لشراء بعض الهدايا من النوفوتيه القريب منهم، أحببت تلك الحارات العتيقة جداً وكنت أسير الهويني أطبع كل تلك الصور في مخيلتي لعالم أراه للمرة الأولى.

هناك أمر آخر أثار دهشتي وهي كل تلك الفوضى في سياقة السيارات، مسارب عديدة دون تقيد بقواعد المرور. هناك من يتجاوزك عن يمينك وهناك عن يسارك، لا أولوية للمرور، هناك عشرات السيارات تقفز أمامك من الشوارع الفرعية وهؤلاء البشر الذين يتقافزون بين تلك السيارات بدون نظام؟ كل ذلك ودون حدوث أي حوادث مرور والحمد لله. لا أعرف لماذا؟ هل يتمعتون بحماية الله؟ توقعت الحوادث عندما ركبت أول مرة بالسيارة، لأن الكل يريد الأولوية لنفسه، ولكن والحمد لله خلال كل تلك المدة لم أشهد حادثاً واحداً، ولم أشهد شجاراً، أو مشادات بين السائقين الذين يأخذون دورك. الكل راض. كأن الأمور هكذا يجب أن تكون.

كان الضغط يتزايد علي يوماً بعد يوم للبقاء وقتاً أطول عن الوقت الذي حددته قبل مجيئي وطلبت من الله تعالى بمساعدتي في هذه الظروف، لأني أريد أن أخرج من عندهم وهم راضون، وأفكر أيضاً ببقية أجزاء جسمي في الزرقاء الذين باتت رسائلهم لي تثير دمعاتي بالهطول أي وقت، حتى عندما كنت سعيدة كانت كلماتهم التي أقرأها مثل السكين التي تقطع وقتي المتبقي في القاهرة، وأحياناً تشعرني بالذنب حتى عندما يكتبون لي نرجوك أن تسعدي بكل دقيقة لك ولكن عندما أقرأ (أريد أن يأتي الآن يوم الجمعة، لا أستطيع أن أحتمل دقيقة أخرى على بعادك) كانت هذه كلمات ابنتي ليست الصغرى ولكن أختها التي تكبرها بستة أعوام.

بفضل الله استطعت أن أثبت يوم السفر المحدد، وذلك بعد الحصول على رقم الملكية الأردنية. غافلتني ابنتي بعدي بالاتصال وتكلمت على لساني أنها تريد تمديد المدة أسبوعاً آخر، ولكن الموظف هناك اكتشف تضارباً بالشخصية ثم بلال عندما اتصل به أيضاً. أصرّ هذا الرجل على أن آتي شخصياً، للتأكيد على الحجز.

أصيب مضيفيّ بالارتباك، فالوقت لم يعد ليكفي للبرنامج الذي أعدوه، فقد كان يظنان أنني سأغير رأيي وأمكث أكثر. فهناك زيارة الأهرامات التي يأتي السياح إليها من كل العالم وهناك زيارة قلعة محمد علي أيضاً الكبيرة والمهمة ولم يبق سوى يوم واحد هو يوم غد وبعده الجمعة. السفر.

لم يبق لي من الرغبة الاستعداد للسفر والعودة للوطن. يكفيني ما رأيت وما شعرت وما سمعت فقد أخذت الكثير جداً في وقت قصير. وصار عندي ما أتحدث عنه للآخرين عند

عودتي من المعلومات وهذا زيادة على ما شعرت به تجاه تلك الأمور، فمثلاً يبلغ عدد سكان القاهرة ٢٦ مليون نسمة بينما في الليل ٢٢ مليون لأن أربعة ملايين إنسان يأتون إليها صباحاً ويغادرونها مساءً. سألت بلال مرة كيف ستكون الأمور عليه لو أن لك كل سكان الأردن حضروا للقاهرة مكان سكانه الأصليين.

- سيكون لكل فرد منهم عمارة. هذا عدا عن الفراغ في الساحات والشوارع.

أيضاً هناك شيء مستغرب أن الناس يمشون بالشوارع التي تكون مكتظة بالسعة الوحدة أو الثانية ليلاً أو أكثر دون أن يختلف شيء عن ما تراه الساعة الثامنة ليلاً حتى لتظن نفسك أن ساعتك لا تعمل بشكل جيد فالمحلات مفتتحة والحركة على أشدها، قرر بلال أن يأخذ إجازة ليوم غد الخميس بعد أن يداوم أول ثلاث ساعات ثم ليمضي في تنفيذ برنامجه الذي أعده مسبقاً.

(١٤)

هذا الصباح الذي سأشهد مثله صباحاً آخر ثم أعود لبلدي، ترتفع الأصوات من حولي بالتدريج. فهناك قهوة وبقالة ثم الباب الخلفي لمسرح الزعيم تلك البناية التي تجاور البناية التي نقطن بها ولكن مدخلها على شارع ونحن على شارع آخر. فهذه الأصوات لا تخفت إلا في الساعة الرابعة صباحاً، حيث يبدأ الهدوء الليلي وينتهي الثامنة صباحاً.

عاد بلال الساعة العاشرة بينما كنّا ننتظره لتناول الفطور.

- أتدري بلال، إن البيت يكون ساكناً طوال فترة غيابك ولا تدب به الحركة إلا عند قدومك.

استغرب ضاحكاً. لأنني وابنتي أحياناً نتحدث بصوت عادي وأحيانا نشاهد التلفاز أو أن أساعدها في الأعمال المنزلية، لأن يدها اليمنى كانت في الجبس واليوم من المقرر أن يزال عنها. ولكن عندما يأتي تشع الحياة في البيت بحركاته ونكاته وأحياناً بممازحتهما معاً بالحركة والضحك ثم الاستعداد للخروج.

كان أول مكان في جولتنا هذا اليوم هو زيارة الأهرامات. لم أشعر بدايةً ما يشدني لتلك الزيارة فقد رأيتها من بعيد وأعرف أنها عظيمة وكبيرة الحجم ولكن (الحكي مش زي الشوف) كما يقولون في الأردن، أو (ما راء كمن سمعاً) كما قال الشاعر.

كانت تقع في نهاية الشارع الذي يسكنون به. شارع الهرم. وصلنا بسرعة، كانت تصطف تلك الحافلات الكبيرة من السياح

عند مدخل المكان، تنتظر السماح لها بالدخول بعض الحافلات كانت وجوه ركابها وكأنها من شرق آسيا وأخرى من أوروبا. كانوا مسرورين جداً بالقدوم لذلك المكان. بعد أن أشترى التذاكر مررنا من خلال ممر يتم فيه تفتيش الناس والحقائب ثم بدأنا المشي بين زيارة القبور القريبة من الهرم الأول. كان عظيماً جداً بحيث لا تحتويه أي صورة. كنت سأبدأ بالتقاط الصور فوراً، لكن مضيفي نصحني بالانتظار لأخذ الصور من أماكن معينة مشرفة، بحيث تجمع صورتي مع الأهرامات الثلاثة. من المفضل أن يرافقط شخص يكون قد أتى قبلك عدة مرات ويعرف عن المنطقة الشيء الكثير. عندما تحدثنا وتبادلنا المعلومات التي لدينا عن الفراعنة، بعض المعلومات من الكتب وبعضها من القرآن، أحسسنا أننا انتقلنا ٤٥٠ ألف عام للوراء ومشينا على تلك الشوارع والممرات التي سبق أن مشوا عليها. كان قد نحت على بعض القبور أنها بنيت قبل ٢٥٠٠ عام قبل الميلاد، وكان الهرم الثالث خفرع قد افتتح أبوابه للزوار قبل يومين فقط.

رأينا مركب الشمس ومشينا إلى مكان مرتفع حيث الهواء النظيف تستطيع وأنت تقف في هذا المكان أن ترى كل القاهرة كما يريك جبل قاسيون كل دمشق. أخذت أحاسيسي ومشاعري تتململ: عهدها في تلك الأجواء تريدني أن أعبر عنها، تبعاني إلى كل مكان كنت أقف فيه أستقبل الهواء البارد الذي يلفح وجهي، أستشف فيه أشياء وأشياء من عظمة هذا المكان كانا مستغربين أعطيته أجراً على كل جهد بذله وذلك بإشعاره بسعادتي. لا أعرف كيف أرد له المعروف الذي يشعر أنه ليس معروفاً، وأنه هو واجبه إلا بهذه الطريقة.

كلما ناداني بزوجة عمي أحزن عليه لأنه ينسبني لعم لم يره ولو كان موجوداً لأحبه ورعاه، ولأن أباه هو الآخر كان غائباً فقد تساوى هو وابنتي في هذا الجانب.

ركبنا العربة التي يجرها الحصان لطريق العودة ولأننا مشينا كثيراً، ولكن ابنتي بدأت بالصراخ عندما وصلنا لطريق نحدر، ساندتها أنا الأخرى وأعلناً عن قدرتنا على المشي للأردن إذا تطلب الأمر ودون الحاجة بنا للركوب. نزلنا ودرنا نصف دائرة حتى نقترب من أبي الهول. طلبت منا التذاكر مرة أخرى ثم مررنا. كان هناك العديد من السياح وكان هناك مكان مناسب لالتقاط الصور مع هذا المخلوق الجبلي الكبير الرابض على هذا المكان منذ ملايين السنين. كان الكل يتكلم عن نابليون كيف أنه حاول تحطيمه بالمنجنيق ولم يستطع إلا جدع أنفه. جلسنا جانباً بانتظار السياح لينتهوا من التصوير ولكن دون جدوى. دخلت للمكان المطلوب. بعضهم ابتعد عنّي وبعضهم ظهر بالصورة، ليس مهماً بالفعل، لم يبق إلا صورة واحدة التقطها بلال لنا ونحن في طريق العودة حيث نقف على الشارع، ومن خلفنا أبو الهول ثم من خلفه الهرم الكبير.

عدنا إلى البيت، تناولنا الغداء ثم استرحنا لبعض الوقت، البعض أخذ فترة من النوم، ولكن بالنسبة لي لا أستطيع ولم أعتد النوم بالنهار. اكتشفت صفات لي لم أكن أعرفها من قبل والفضل يعود فيها لعملي لأنه عودني على الحركة المستمرة، فمهما تعبت أثناء النهار فإني أستيقظ باليوم التالي وكأن لا شيء قد حصل بالأمس. بهمة ونشاط جديدين.

خرجنا من البيت في الثامنة مساء بعد أن شربنا القهوة. سرنا بالاتجاه المعاكس لمركز المدينة، مشينا في اتجاه صيدلية

لشراء بعض الأدوية، ثم قادنا للشارع الذي كان يقطن فيه قبل هذا المنزل ثم الكابينة التي كان يتصل بنا منها أثناء فترة الخطبة ثم العمارة والطابق، كانت بناية جميلة يحدها من الزاوية بلكونة صغيرة حددت حددت أطرافها بالحديد المزخرف.

طلبنا من بلا أن يدعنا نركب بالباص العمومي، لأن الباصات تمر من جانبنا وقد خلت من الركاب. انصاع لنا وركبنا ثلاثتنا في كرسي واحد بعد أن أختاروا لي المقعد المحاذي للشباك. انقرضت هذه النوعية من الباصات الفوكس في الأردن. هنا تجدها بكثرة، توقفت عشرات المرات ولكنها تسير بسرعة فالشوارع طويلة والأمكنة بعيدة، ولكن دون أن تشعر بالملل. بعض الفنادق والعمارات ما زالت تحتفظ بالزينة التي زينت بها ليلة رأس السنة. وصلنا الأماكن كنت أراها لأول مرة، نزلنا لمترو الأنفاق مرة أخرى وذلك لإتاحة الفرصة لي بركوبها ولكننا وجدنا أعداداً هائلة من الناس على الجانبين بالإنتظار، أوشك على المغادرة لولا أننا استوقفناه قليلاً. نحن لسنا مضطرين، إن ركبنا فيها وإن لم نستطع فلا بأس. كانت الأبواب كثيرة وتفتح مرة واحدة. ويدخلها الركاب دون تزاحم. هذه المرة سنقف لأن المقاعد القليلة التي وجدت به وقد كتب عليها لذوي الاحتياجات الخاصة من كبار السن والمرضى كانت مشغولة، أمسكت بساعده بينما تمسكت ابنتي بالمكان المخصص لذلك، وأمسكتها باليد الأخرى، ولكنها لم تكن لتخاف. عندما وصلنا إلى المكان المحدد صعدنا أحد الادراج الكهربائية للطابق الأعلى ثم درجاً ثانياً ثم ثالثاً. أعلنت مستغربة.

- أين كنا إذن نحن.

- ألم تشعري أننا مررنا من تحت نهر النيل.

- لم أشعر بذلك فلم تكن قطرات من المياه تنقط علينا.

ضحكنا وصعدنا، مررنا بالقرب من حديقة عامة كبيرة كانت تمتلئ بالتماثيل الحجرية ثم ذهبنا إلى النيل لنركب أحد تلك القوارب، أوشكت على أن أمسك شيئاً في نفسي لئلا يخرج ها هو النيل مرة أخرى يظهر لي من الجمال أضعاف ما رأيته من قبل وكأنه يقول لي: أنظي كم أنا جميل. فإنك لن تستطيعي رؤيتي بعد اليوم.

كنت أظن أو أتخيل نهر النيل قبل أن آتي أنه مجرد نهر يمر في أرض ترابية وأن الناس يجلسون إليه أو يمشون بجانبه، ولكن أهم ما يميزه تلك الأضواء التي تشع في شماء القاهرة السوداء فتحيلها ليس إلى نهار بل إلى ليل تزينه من هنا وهناك هذا بالإضافة إلى الأصوات الموسيقية التي تملأ المكان والباعة الذين ينادون عليك لتشتري منهم كل شيء. نزلنا تلك الدرجات من البلاد الصيني الملون واستقلنا أحد المراكب الذي ما يزال بعض ركابه يتابعون الرقص الذي تميز الشباب بالمهارة فيه أكثر من البنات، مع أن البنات راقصات إلا أن الشباب أكثر. رأيت هذه السفن التي تحوي مطاعم وغرف للزبائن بجدرانها الزجاجية التي تتلألأ من بعيد. مسكت بيديهما لئلا أمسك قلبي عن الخفقان. سأسمي هذا اليوم رحلة الوداع، وكنت كلما قلت كلمة الوداع يعترض بلال على كلامي قائلاً: إن شاء الله بعد كم شهر أخرى تزورينا ولن نشبع من زيارتك.

- أترى ما أتمناه

- نعم

- أريد لكل الذين أعرفهم أن يروا ما أراه الآن، ليس فقط صوراً غبية تأخذ نقطة فقط وتصورها.

- لو أن معنا كاميرة فيديو. أضاف بلال.

لم يفهم ما قصدت فالجو لا تستوعبه أي صورة بالعالم مهما كانت إلا أن تكون موجوداً بالفعل. وأن ما أتمناه لا يمكن أن يحصل في أن يجتمع كل أقاربي وأبنائي الآخرين في مكان واحد. هذا يحصل فقط في الخيال.

سرنا مرة أخرى على هذا الكوبري الذي يقف أسدان كبيران من المعدن عند أوله واثنان عند آخره يحرسانه، إنه كوبري قصر النيل، ووقفنا عند حافته نراقب النهر والسفن والسماء والليل، طالت مكالمته ونحن ننتظر. كان متضايقاً جداً، إذ حصلت مشكلة في العمل. خفت أن يكون قد حصل هذا بسببي لأنه أخذ إجازة من أجلي، طمأنتني ابنتي بأن هذا الأمر كثيراً ما يحصل. خفت أن يفسد مشوارنا بسبب هذه المشكلة. لكنه بمجرد أن أعاد الهاتف النقال إلى جيب سترته نظر إلى السفينة قائلاً: أليست هذه التي تسمى مدينة النيل؟. كانت تنقش الأسماء عليها بالأضواء الحمراء. ابتسم متنقلاً إلى مكان آخر وقد أخذ بيدي ناسياً ومتناسياً ومبعداً لمشاكل العمل بعيداً عن مشوارنا الخيالي....

- هل تعرف كم كوبري يقطع أنهر لنيل......؟

- نعم. والذي بعده كوبري ١٣ أكتوبر.

- جيد......... فأنت تلميذة نجيبة.

تابعنا المسير من مكان لمكان وهو يسألنا؟ ألم تجوعا........؟

- ليس بعد.

بالنسبة لي فقد خبزت كعكة وزينتها بالشوكولا، وصنعت أرزاً بالحليب قبل مجيئنا وقد تناول منها، ولكننا أنا وابنتي اللتين لا تحبان الحلويات، تغير مزاجنا من تناول الحلويات، وقد أخذ منا وقتاً إلى أن تعدل مزاج المعدة عندنا.

كان هناك أكثر من رأي حول تناول العشاء فقد تعددت الأفكار والأمكنة. بالنسبة لي كلما سألني كنت أقول: البيت. ولكن أخيراً ذهبنا لمطعت التابعي الدمياطي بحي المهندسين. طلبنا الطعمية والحمص والفول والسلطات المختلفة، كان الفلافل مثل قطع العجّة الصغيرة، لكنه كان لذيذاً والفول لونه غامق لذيذ أيضاً مع الليمون والزيت أما الحمص فقد كان خشناً مثل المتبل، وكان هناك المقرمش وشوربة العدس.

لاحت مني التفاته إلى الساعة الموجودة بالمطعم.

- بلال هل صحيح أن هذه الساعة الواحدة.؟
- نعم. ولم العجلة...
- أمامنا سفر يوم غد ويجب أن نستيقظ باكرين.
- على العكس فنحن سنخرج من البيت في التاسعة والنصف.

خرجنا ومشينا قليلاً بالقرب من مسجد الفتح. قرأت إعلاناً وضع بخط كبير على واجهه المسجد بأن هناك دورات كثيرة للتقوية في شتى المواد الدراسية لطلاب المدارس لمن أراد التسجيل وذلك بالمجان.

سألني ذلك الشرطي الذي ينظم المرور إلى أين ستذهبون، حتى يساعدنا في قطع الشارع قلت له لا أعلم وأشرت إلى بلال، غريب. إلى هذه الدرجة يساعد الناس.

اشترينا بعض (الكلاكيل) لتدفئة القدمين من المرأة التي تجلس على حافة المسجد وتبيع القبعات الصوفية والجوارب المختلفة، عدنا لمحل العصير القريب من البيت بالتاكسي الذي أعطاه أكثر مما اتفقا عليه لأنه حزن عليه كنا قد بدأنا المشوار بشراء العصير وفي البيت عصير والآن عصير، صحيح أن عصير المانجا الذي يبيعون الكوب منه بجنيه من ألذ ما شربت بحياتي، لأنه يتكون من المانجا الناضجة ولكن لم أكن معتادة ولم أكن لأحب شرب العصير من قبل، سأل أكثر من مكان ليجمد له (جلنين) من العصير بالفريزر لإحضارهما للأردن وكذلك كان يود شراء فاكهة الجوافة لأنها مميزة في مصر بشكلها ولونها وحجمها.

وقفت أمام حقيقة لأول مرة في حياتي وهي عندما كانوا يطلبون مني أن أختار ما أحب من المحلات الكبيرة أقف عاجزة لأني دائماً أختار الأشياء التي تحبها بناتي أو أولادي ولكن اليوم لا يوجد هنا بناتي أو أولادي، ولم أتعود أن أشتري شيئاً لنفسي كنت أحتار كثيراً لأني أقف هذا الموقف أول مرة، حتى عندما كان يشتري نسيبي الفراولة ويضعها في الثلاجة لأتناولها كنت لا أستطيع مع أني لا أكرهها وذلك لأن ابنتي الصغر في البيت تحبها جداً فأنا أتركها لها، أما الآن وابنتي هذه الأخرى لا تتناولها فما العمل؟ أنا مجبورة على ذلك.

عندما عدنا لفلبيت كانت الساعة الثانية والنصف ليلاً، ولكن مدخل الحارة عندهم مكتظاً بالبشر، ذلك لأن هناك مطعماً يربض في مدخل الحارة يسمى مطعم الشبراوي.

دائماً أعلق عند مرورنا هناك أن مدخل حارتكم مؤنس وذلك لأن الحركة تعج هناك فبائع الخبز يبسط أكياس الخبز

المربوطـة والمتعددة الأنـواع علـى اللـوح الخشـبي الكبيـر وهـذا المنظـر تجـده أينمـا ذهبـت ثـم بـائع المـوز ثـم بـائع البرتقـال، وبالمقابل كان المكوجي والخياط ثم فـي الجهـة الأخـرى تسـاءلت ابنتـي مـاذا يفعـل صـالون الحلاقـة فـي ذلـك الوقـت، وهـل يأتيـه زبائن الآن...

قلـت لربمـا اعتـاد السـهر مـع جيرانـه أصـحاب المحـلات الاخرى، سهرنا قليلاً وأعلنت عن رغبتي بالذهاب للنوم.

- هل أنت نعسة......؟

- لا ولكـن يجـب أن ننـام فغـداً أمامنـا سـفر وسـأنام فـي تلـك الغرفة وهذا السرير لليلة الأخيرة.

(١٥)

استيقظت قبل السابعة بقليل، توضأت وذهبت للصالون لأصلي، ولمفاجئتي كان بلال مستيقظاً قبلي يتابع الأخبار.

سألته لماذا يستيقظ الآن........؟

- اعتدت على ذلك.

ما رأيك بفنجان من القهوة، فلم يبق إلا آخر كمية. (وكان قد جلب كمية من القهوة من عند أصدقائه كانوا قد احضروها من الأردن مثل التي تعودت عليها).

- حبذا ذلك

تحدثنا قليلاً وسمعنا نشرة الأخبار.

- سأوقظ إيمان في التاسعة لأننا يجب نخرج في التاسعة والنصف من هنا. نعرج على محل العصير ثم ننطلق إلى المطار بإذن الله.
- هل سنمر من نفس الطريق التي سلكناها عندما حضرت....
- نعم
- لأن هناك عدة أمكنة وجدتها جميلة وأحب رؤيتها مرة أخرى.

....

استأذنتني دمعتان بالخروج إلى دنيا الحرية فلم آذن لهما، وأمرتهما أن تبقيا حبيستين إلى فرصة أخرى، ولكنهما عندما بدأت ابنتي بتجهيز نفسها للخروج لم تطيعا الأوامر، فقد حزنت

عليهـا كثيـراً لأنهـا سـتعود للوحـدة مـن جديـد، فعمـل زوجهـا لا يرحم.

لم يكن لـي مـا أجهزه. فملابسـي موجـودة بـالحقيبـة مـن قبـل وجـاهزة، انطلقنـا لتلـك الشـوارع التـي تكـاد تخلـو مـن المـارة، ولفرحتي فقد مررنـا من تلـك الحـارات القديمـة التـي أحبهـا مـرى أخرى للعثور علـى محل العصير.

- حماتـي تحب الأماكن القديمة أكثر.

- كنت مستغربة قبلاً من الناس الذي يحبون ذلك، ولكنـي أظـن أن الإنسـان عنـدما تصـطدم حياتـه بعـائق أن يجابـه مشـكلة كبيرة أو وقتاً مؤلماً فإنـه يعـود لخـط الـدفاع الأول، لطفولتـه، لأنـها كانت الوقت الوحيد الـذي تتغلـب فيـه مشـاعره السـعيدة علـى الألـم، وأن رؤيـة أي شـيء يـذكره بطفولتـه مـن منـاظر اعتاد رؤيتها أو بساطة عيش كالتي كانت قديماً، تعيده لـذلك الجو الـذي لـم يكـن فيـه يحـس بـالألم، لا أعـرف إن كـان هـذا التفسير صحيحاً أم لا، ولكنه ما يجول بخاطري.

سائقوا التاكس أو الأسطه كمـا نيـادونهم، يخـل إليـك أنهـم لا يسـمعون لأنـك عنـدما تتحـدث لا يشـتركون بالحـديث البتـة، إلا عنـدما تتحـدث عـن الآثـارات أوالأمـاكن القديمـة، مثـل القصـور الملونـة علـى الطريـق، بانورامـا الإذاعـة والتلفزيـون، فـإن الكـل يعرف تلك المعلومات.

عندما وصلنا المطار لم يسمحوا لهمـا بمرافقتـي، حتـى مـن البـاب الخـارجي الكبيـر. استغربنا ذلـك فسـألت الشـرطي الملـزم بالحراسة فقال إنهم لا يسمحون لأن الوقت وقت حج والمطـار الآن مخصـص للعنايـة بالحجـاج. عنـدها علمـت لمـاذا تقـف العائلات خارجاً تحت الشمس مع أقاربهم الذين سيودعوهم.

- فلنعد خارجاً نقضي معاً بعض الوقت المتبقي. فقد وصلنا قبل الموعد بساعتين.

أعلنا عن موافقتهما وأخذنا معاً تلك العربة التي تحمل الحقائب. تحدثنا وبكينا وضحكنا في نفس الوقت.

- نصيحتي لكما أن يرعى كل منكما الآخر حق الرعاية. رفعت رأسها معتدة بنفسها بينما قال: سأضعها في عيوني فلا تقلقي.

- ليس معنى كلامي أنه موجه له. حافظي عليه كما لو أنه ابني. هذه وصيتي لك.

- وأنا .... ألست ابنتك........؟

- وأنت أيضاً...... حافظ عليها كأنها ابنتي.

- حاضر........ وأنت إبدأي منذ الآن للتحضير لزيارتك القادمة لنا.

- سأفكر كثيراً قبل أن تعزوني تلك الأفكار.

- لماذا

- لأنكما أزعجتما أنفسكما كثيراً بزيارتي. ولو أنكما تركتما الأمور على البساطة لفكرت بذلك أكثر.

- الله يسامحك يا حماتي فما زلنا مقصرين وأنت أول مرة تزورينا بها. وكنت أتمنى أكثر لو طالت مدة هذه الزيارة.

أما الآن فقد حان وقت الرحيل. وقد أتت الساعة التي أخاف منها ألا وهي الوداع، بدأت معها أولاً بكينا كثيراً. نظرت إلينا المرأة التي تتحدث مع أقاربها وقد كانوا يقفون مثلنا سيودعون أقاربهم، ثم ودعته. كانت عيوني مبلولة بدمعات الفراق عندما

أعلنت مبتسمة: إنني أطول منه، فقد كنت أقف على درجة الرصيف بينما كان يقف على الشارع، ابتسمنا ثلاثتنا أخذت أمتعتي ومشيت بعد أن قال لي ما الخطوات التي يجب أن أتبعها وأعطاني بعض الجنيهات المصرية تحسباً لأن تكون هناك ضريبة مغادرة. وعندما وصلت بال الصالة الزجاجي، نظرت للخلف كانا عادئين لمنزلهما في شارع الهرم مرة أخرى.

وزنت الحقائب ثم بدأت أبحث عن البوابة التي سيدخل مهنها كل من كان مغادراً إلى عمان. عمان الرابضة هناك حيث بلدي. ووظني ينتظرني. لم تفتح البوابة بعد. نظر إليّ مجموعة من الناس كانت تجلس مقابل تلك البوابة، نظرت إليهم فقد عرفتهم وعرفوني دون كلام، ففي هذه الأماكن يحرم فيها الكلام. ويتحدث الناس بعيونهم أو لا يتحدثون، ليس مهم لهم تلك المعلومات. إنهم أناس يهتمون بقراءة الصحف، أو بأمورهم فقط.

وحين دخلنا تلك البوابة إلى القاعة التي سنجتمع فيها للمغادرة للطائرة، استطعت أن أميّز كل تلك الوجوه التي غابت عني لفترة من الزمن، ولكني الآن أقدر على تمييز تلك السحمن وهذه الملامح، كانت القاعة فارغة إلا من مقاعد قليلة متفرقة، وجوه صامته واجمة ألا يقولون أن الأردنيون يتميزون بتلك التكشيرة عن بقية إخوانهم العرب، لا أدري بقيت أن الأخرى جالسة، أراقب امتلاء القاعة ومنصته لذلك الشيخ الذي يقرأ القرآن على تلك الشاشة الكبيرة، فاليوم الجمعة وهو وقت الصلاة.

عادت الروح لتلك الصالة مع امتلائها بالمسافرين، وارتفعت أصواتهم لتملأ المكان وتملأ الجو الذي كان يشوبه

الصمت قبل قليل، أخذتنا تلك الحافلة مرة أخرى صعدت الطائرة، هذا الحدث الذي كنت أنتظره منذ أسبوعين، لتسلحي الآن بالخبرة. كدت أطير من الفرحة عندما سمعت الراكبين الذين جلسا بجانبي وقد أبدى أحدهما خوفه وقلقه لزميله قائلاً: أنا لا أخاف صعود الطائرة ولكني أخاف جداً من الهبوط، فأخذ الآخر يواسيه ويقوي عزيمته، وعندما أوشكت الطائرة على الهبوط زهوت بنفسي. هو رجل سافر كثيراً ويخاف. وأنا........الحمد لله.

عمان. قلتها بصوت مسموع. كم هي مهمة هذه المدينة. إنها أهم عاصمة في العالم وقريبة جداً من سكني. أكثر مكان بالعالم أتمنى أن أكون موجودة به الآن!

بحثت عن حقائبي وأتممت معاملاتي وخرجت لأبحث عن وجوه أعرفها بين هذه الحشود، وما أن رأيتهم حتى أسرعت دونما أعبئ بأحد من كل تلك الأمم. لم أكن لأرى أحداً منهم فقط توجهت لبناتي وقد غرقت في بكائي معهم وكأننا نتلاقى منذ سنة. يا لفرحتي. أنا أسعد إنسانة بالعالم الآن! إذ أنني عدت لهم ولطني الحبيب.

- أين أحمد
- إنه في البيت لم يكن له متسع في السيارة.
- إذن فلنسرع للبيت.

معطفي الأسود

عندما أوشكت على مغادرة البيت إلى المطار تذكرت أن ابنتي طلبت منّي أن أحضر معطفاً سأحتاجه عندما نتمشى على النيل. لم أجد بسرعة المعطف الذي سأصطحبه ولكني وجدت هذا المعطف الصوفي الأسود اللون. أزعجني حمله وأنا في المطار، ثم في الطائرة وعندما وصلنا وبدأنا أول مشوار أشاروا عليّ بأخذه معي.

- ولكن الجو صيفي وأنا أشعر بالدفء
- يحسن بك أخذه لأن الجو يصبح بارداً ليلاً.
- حسناً سأخذه معي

ولكنه أعاقني في كل تحركاتي وفي المطعم والمشي ولم أحتجه أبداً. وكل يوم نفس السيناريو، حتى في الإسكندرية حيث عاد بلال من الشارع إلى الشقة ماراً بالمصعد وباحثاً عنه حوالي ثلث ساعة حتى ومعه ذلك الشيء، لم يصدقا أبداً أنني لا أشعر بالبرد سبب لي مشكلة وجوده معي أينما ذهبت، فقد حرصت على ألا أحمل شيئاً في كل تلك النزهات، حتى حقيبتي لم أكن أحملها. أنا في إجازة ويجب ألاّ ألزم نفسي بحمل شيء.

- سأرمي به في بحر الإسكندرية ذكرى مني لها عندما أغادرها.ستحول لون البحر للون الرمادي لوفعلت ذلك.
- لن أفعل ما يؤذي ذلك البحر الجميل أو يغير لونه، ولكني ضقت ذرعاً بذلك الشيء على أن يكون معي لأن المطار بما يكون بارداً. ومسبباً لي نفس الإزعاج حين رافقني بالطائرة وعند رجوعي للبيت.

ما رأيكم لو كنتم مكاني فماذا ستفعلون به.

وأنا لم ألبسه مطلقاً

عمل بلال

يعمل بلال في أكبر فرع لإحدى الشركات الأردنية ومقرها الزرقاء وهذه الشركة تهتم بتصنيع أغلفة مميزة وملونة للشيبس والبسكويت والخضار المفرزة وما شابه، وحين تستعين بهم كبرى المصانع لعمل التغليفات المناسبة اليت قد تجتذب الزبائن أكثر.

ينقسم العمل في تلك الشركة إلى ثلاثة أوقات في الصباح وفي المساء وفي الثالثة ليلاً ولأنه المسؤول عن الجودة. ولكنه بالفعل مسؤول عن كل تلك الأعمال التي تبدأ بتحضير المواد ثم خلطها ثم التعامل مع الزبائن، فإن تلفونه لا يهدأ لا بليل ولا بنهار. يسألونه عن كل صغيرة وكبيرة. ألم يعتادوا على العمل وحدهم.؟ سألتهم قالت لي أنه لا يعارض اتصالاتهم الليلية والنهارية وإنه يرد عليها حتى وهو نائم.

قلت له مرة إن هذا الوقت الذي تقضيه في البيت وتتابع فيه العمل بالاتصال والإشراف من بعيد يجب أن تأخذ عليه أجراً كعمل إضافي، ابتسم وأوضح لي أن الأمور هنا تجري بشكل مختلف حتى الوقت الذي قضيناه في الإسكندرية كان يرن هاتفه كل نصف ساعة تقريباً. فقد رافقه زملاؤه في كل الأماكن التي كان ينتقل بينها وهم على الطرف الآخر بأسئلتهم ومشاكلهم وقضاياهم.

ألا يستحق هذا الكائن الاستراحة.؟!

الحبيب بلال

بدأت أنتقي الكلمات التي سأعبر فيها عن تقديري وتـأثري ولكن الكلمات خانتني وهربت منّي. اندست في الثقوف وتركتني أقف أمامك بلا كلمات. تقوقعت واختفت عندما علمت أنها في هذا الموقف. ومهما قلب ومهما فعلت فلم ولن أوفيك قدرك سأدعو الله لك أيها الغالي أن يجزيك عني خير الجزاء.

ما فتأت تبتكر وتخترع المواقف التي تستطيع أن تقدم لي بها الأشياء، ومع إصراري على أنني لا أريد أي شيء ومع إصرارك على أنك تريد أن تقدم لي الدنيا بما حوت. ومع علمي بضيق ذات يدك في هذه الايام ومع علمي بأن تلك الصفات قد انقرضت من الشهامة والنبل والكرم وطيب القلب وحلو اللسان. سأبقى أذكرك كلما قطعت شارعاً لأن لا أحد سيقفز حولي من الجهة الأخرى التي تحميني من السيارات ماسكاً يدي من هنا وهناك تخترع وتبتكر كيف ستأخذ لي الصور. تجتهد في أن تريني كل مكان جميل. طعمني كل الأشياء تسقيني كل شيء تمسك بيدي عند كل درجة. وعند كل ركب مركب. كل وردة اشتيتماها لي أنت وإيمان تخبرني عن صدق محبتكما وعن سروركما بزيارتي، تشرح لي عن الاتساع الذي يحويه قلبك النابض بحب الخير. أنت لم تكنز الذهب والفضة والعمارات رغم وضعك المادي الجيد، إلا أنك جمعت أشياء أثمن من هذه. لقد جمعت حولك أصدقاء من هنا وهناك فأحبوك وأعدوك من مقتنياتهم، واستعدوا أن يبذلو الأرواح في سبيلك، عندما كنا نتحدث في ذلك اليوم عن الحماة والصهر وكيف يتعامل الآخرين. إن كنت في مواجهة معك فإني سأستسلم وأسلم لك

أسلحتي فنحن لسنا في معركة. وأنا وأنت في خندق واحد في مواجهة الظروف الصعبة. ولكن بحق قدوة للناس الذين يعرفوننا كما كنا دائماً. سأبقى أتذكرك مهما بعدت المسافات بيننا. سأبقى أتذكر أنك حققت لي أحلاماً كثيرة، ولم يبق شيء في نفسي إلا نفذته لي. حتى عندما شاركتنا الركض وتسابقنا قرب البحر لأنه الوحيد الذي رآنا ولم يش علينا لأحد. كلماتنا ونكاتنا وضحكاتنا تلك التي كانت تنير الظلام في ذلك المساء. أناشيدك الجميلة وصوتك الحنون الذي يخرج بعض العواطف التي لديك من مخزونها. انتظارك لي بينما أصلي ثم تصلي أنت. مشاركتي القهوة رغم أنك لم تكن تحبها. ثم ذلك التاكسي الذي استأجرته ليأخذنا لمكان جميل قرب الكاراج لتأخذ لي بعض الصور في الدقائق القليلة التي سبقت سفرنا من الإسكندرية مع أن الحقائب كانت معنا. كلها أشياء كثيرة تحمل لديّ معاني عظيمة لقلب كبير أحببت ألاّ أفارقه أبداً. يكفي أنك وهبتني كل وقتك خلال الأسبوعين ولم تترك منه لنفسك شيئاً. كل دقيقة من هذا الوقت التي قضيتها بينكم تنبئ عن نفسها. تخبرني وتخبرك. ومع أنك لم تقبل بالأسبوعين. هي في حكم الايام والساعات أسبوعان. ولكنها بالنسبة لي عمر كبير أضاءت قسماً كبيراً من حياتي بشموع بيضاء من المحبة والإنسانية. من جهتي..... شعوري نحوك.......لن أذكره، فأنت تعرفه، والكلمت لا تريد أن تعبر.........

الزرقاء في
٢٠٠٥/١/١٠